نقض مطاعن فى القرآن الكريم

يتضمن تفنيد ما ألقاه المدعو طه حسين على طلبة كلية الآداب فى الجامعة المصرية

بقلم

محمد أحمد عرفة

وكيل كلية الشريعة الإسلامية

وقف على تصحيحه وعلق عليه بعض الحواشى

السيد محمد رشيد رضا

صاحب المنار

طبعة ثانية 1986

الناشر : مكتبة الزهراء

9 ش عبد العزيز ــ عابدين ــ القاهرة

مقدمة

القسم الأول : الطعن على القرآن العظيم فى الجامعة المصرية

تفنيد الطعن الأول

تفنيد الطعن الثانى

تفنيد الطعن الثالث

تفنيد الطعن الرابع

تفنيد الطعن الخامس

القسم الثانى : علاوة : ضراوة الناقد بالطعن فى القرآن

المقال الأول : منهج الدكتور طه حسين العلمى فى البحث

المقال الثانى : طه حسين يسرق طعونه فى القرآن من كتب المبشرين

المقال الثالث : السياسة الإلحادية فى التعليم

المقال الرابع : القرآن الكريم

القسم الثالث : تذييل

المقال الأول : مجانبة بحوث طه حسين للمنطق والتفكير

المقال الثانى : القرن الثانى ليس عصر شك واستهتار

كلمة ختامية فى هذا الكتاب وعلاوته وذيله

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم كما هديتنا إلى الخير فأعنا على الدعوة إليه ، وكما عرفتنا الحق فوفقنا إلى تعريفه للضالين عنه، وكما أريتنا المعروف معروفاً ، والمنكر منكراً ، فاجعلنا من الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر .

اللهم علمتنا فأيدنا بروح من عندك لنذيع ما علمتنا .

اللهم ثبت قلوبنا لنصدع بالحق ، وهب لنا العز والشجاعة لنجهر بالصدق ، وطهر نفوسنا من حب المال والجاه لنقول ما نعتقد ، ولو باعد ذلك بيننا وبين المال والجاه .

اللهم أوذينا فى سبيلك فكادت عزائمنا تخور ، وقوانا تَهِن ، وإرادتنا تُفل ، فشُد من عزائمنا ، وقوِّ من إرادتنا ، وارزقنا من الصبر ما نحتمل به الأذى والمكروه فى سبيل الدعوة إلى الخير .

اللهم اجعلنا ممن علم فعلَّم ، ولا تجعلنا ممن علم فكتم ، فقد قلت فى كتابك (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ)[البقرة159]

أما بعد ..

فإن الإسلام قد مُنى بقوم من أهله ، وقوم من دعاة الأديان الأخرى ، ناصبوه الحرب ، وراشوا له النبال ، وسددوا إليه السهام ، فأثاروا حوله الشُبه ، وأكثروا فيه من الطعن ، وعمدوا إلى القرآن الكريم فرموه بالإفك ، وافتروا عليه الكذب ، ورموه بعيوب هو منها براء ، وكان من أشد هذه الطعون فى القرآن فحشاً وبطلاناً طعون ذكر فى مجلس النواب أنها لأحد أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية.

وإنها مع فحشها وبطلانها لم يفندها أحد من أهل العلم (فيما نعلم) فرأيت أن أناقشها ، وأبين بطلانها ، فكتبت فى ذلك كلمة ، وأتبعتها كلمة أخرى ، أبين فيها ضرر الإلحاد بالأمة ، وخطر السياسة الإلحادية فى التعليم ، ليرفق الدعاة إليها بأمتهم ، ويشفقوا عليها ، أو ليعلم الناس ضررهم فيتقوا ما يصنعون .

n

القسم الأول

الطعن على القرآن العظيم فى الجامعة المصرية

ألقى النائب المحترم الدكتور (عبد الحميد سعيد) بياناً فى مجلس النواب فى دورة سنة **1932** عن موقف الدكتور (طه حسين) أحد أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية تجاه القرآن الكريم ، جاء فيه أن هذا الأستاذ أملى على التلاميذ فى سنة **1927** نقداً للقرآن ، وقد ذكره بنصه ، وهو :

" وصلنا فى المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب فى القرآن ، وقررنا أنه ليس على نسق واحد ، واليوم نوضح هذه الفكرة فنقول : لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الجرئ ، الذى لا يفرق فى نقده بين القرآن وبين أى كتاب أدبى آخر ، يلاحظ أن فى القرآن أسلوبين متعارضين ، لا تربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة ، أو تأثر ببيئات متباينة .

فمثلاً نرى القسم المكى منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد أن القسم المدنى أو اليثربى تلوح عليه أمارة الثقافة والاستنارة .

فأنتم إذا دققتم النظر وجدتم القسم المكى يتفرد بالعنف والشدة ، والقسوة والحدة ، والغضب والسباب ، والوعيد والتهديد ، مثل : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) [المسد] (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) [العصر **1** ، **2**] (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) [الفجر **13** ، **14**] (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) [التكاثر **5** ، **6**] .

ويمتاز هذا القسم أيضاً بالهروب من المناقشة ، وبالخلو من المنطق ، فيقول : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) [الكافرون 1 ، 2] إلى قوله (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [6].

ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة ، واقتضاب المعانى ، وقصر الآيات ، والخلو التام من التشريع والقوانين.كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم والفجر والضحى والعصر والليل والنهار والتين والزيتون ... إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلة الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً .

أما القسم المدنى فهو هادئ لين وديع مسالم ، يقابل السوء بالحسنى ، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة، والبرهان الساكن الرزين ، فيقول : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء 22].

ويهجر مع أعدائه الترهيب والقسوة ، ويسلك سبيل الترغيب والتطميع فى المكافأة ، فيقول : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ) [آل عمران 31] (... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق 2 ، 3].

كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية ، كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات ، ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة ، يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن .

أما طول الآيات فى هذا القسم فهذا أمر جلىّ ظاهر ، لأن إحدى آياته قد تزيد على عدة سور بتمامها من القسم المكى .

أما أفكاره فهى منسجمة متسلسلة ، ترمى أحياناً إلى غايات اجتماعية وأخلاقية .

وعلى الجملة فإن ما فى هذا القسم المدنى من هدوء ومنطق وتشريع وقصص وتاريخ يدل دلالة صريحة على أن الظروف التى أحاطت بهذا الكتاب إبان نشأته قد تطورت تطوراً قوياً .

هناك موضوع آخر يجب أن أنبهكم إليه ، وهو مسألة هذه الحروف العربية غير المفهومة التى تبتدئ بها بعض السور مثل : ألم ، ألر ، طس ، كهيعص ، حم ، عسق ... الخ . فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية أو التهويل ، أو إظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف ، أو هى رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة التى كانت موضوعة عند العرب ، فمثلاً (كهيعص) رمزاً لمصحف (ابن مسعود) ، (حم عسق) رمزاً لمصحف (ابن عباس) ، (طس) رمزاً لمصحف (ابن عمر) ... وهلم جرا ، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً " ا.هـ.

الحاجة إلى تفنيد هذه المطاعن

علمنا إذن أن هذه الطعون فى الكتاب الكريم كانت تُلقَى فى الجامعة المصرية كعلم يُدرَّس فى مدارس الحكومة المصرية ، وأن عقولاً من أبناء المسلمين قد دخلت فيها هذه الأفكار ، فماذا فعلنا لتطهير عقول هؤلاء التلاميذ منها ؟

هل كتب أحدٌ ما ينقض تلك الطعون ويزيفها ، ويضع ما كَتَبَ فى أيدى تلاميذ الجامعة المصرية ؛ ليعلموا أن هذا المحاضر كان يتغفلهم ، ويخالف الحقيقة والتاريخ ليخدعهم عن دينهم ؟

إن الشبهة قد أُلقيَت إلى التلاميذ وهم لم يدرسوا القرآن دراسة تمكنهم من دحضها ، ولا تزال عالقة بعقولهم تشككهم فى دينهم ، ولم يجدوا أحداً من رجال العلم ولا من رجال الدين ينقض هذه المزاعم بالحجة البالغة والبرهان المنطقى ، ويناقشها مناقشة علمية هادئة .

نعم ، إنهم قد وجدوا أولى الأمر قد فصلوا هذا الأستاذ من كلية الآداب بالجامعة ، ولكن ليس ذلك فى قليل ولا كثير من نقض طعنه وخدش مذهبه ، بل ربما وقع فى نفوس بعض التلاميذ أن أولى الأمر لم يقدروا على هدم رأيه بالحجة ، فعمدوا إلى القوة ، وما كانت القوة يوماً من الأيام بنافعة فى هدم رأى ودحض مذهب .

علمنا هذا كله ، وعلمنا أيضاً أن هذا الطعن فى القرآن حُكِىَ فى مجلس النواب المصرى ، وسمعه أعضاء المجلس والنظَّارة ، وطُبِع فى مَضْبَطة المجلس ، وتناقلته الصحف والمجلات ، وقرأه الناس فى البلاد العربية ، وربما تُرجِم إلى بعض اللغات الأجنبية ، ولكنهم لم يقرءوا مناقشةً له ولا دحضاً .

أفما كان من الواجب الحتم علينا لأبنائنا فى الجامعة الذين تُخاف على أقدامهم أن تَزِل بعد ثبوتها ، وعلى عقيدتهم أن تُزَلزَل بعد رسوخها ، أن ندلهم على بطلان هذه المطاعن ، وعلى مكان زيفها ؟ وأن نقول للباطل : هذا باطل ، وندل الناس على بطلانه ؟ وأن نقول للغث الساقط : هذا غثٌ وساقطٌ ، ونقيم الدليلَ على غَثاثته وسقوطه ؟ .. بلى ، كان يجب علينا ذلك لأبناء الجامعة ولجمهرة القراء الذين قرءوا الطعن ، وللعلم والتاريخ والدين الإسلامى المجيد .

لم يقم أحد بهذا ولا بجزء منه !

أجدبٌ فى العقول ، فليست تثمر ؟ أقوةٌ فى الشبهة ، فلم يوجد لها داحض ؟ أم شكَ العلماء فى فهم القراء وعدلهم ، فظنوا أنهم لا يعرفون الحق إذا دُلوا عليه ، ولا قبح القبيح إذا نُبِّهوا إليه ، وليسوا ينصفون القائل إذ يحكمون له أو عليه ؟

أما أنا ، فقد وثقت بعقول الناس ، واطمأننت إلى عدلهم ، فلست أعتقد أن أحداً تريه الليل وتنبه إلى ظلامه ودجنته ، ولا يدرك ما فيه من ظلام ودجنة ، أو تريه النهار وضوءه ، ولا يدرك ما فيه من نور وضياء . وأعتقد أن عدلهم يأبى عليهم إلا أن يقولوا ما يعتقدون ، ويؤمنوا بما يعلمون . فليس الذنب إذن ذنب الناس ، إنما الذنب ذنب أهل العلم إذ تركوا الناس فى عماية من أمرهم ، ولم يزجروا المبطلين عن غيهم ، حتى أخذ الباطل فى صولته ، وانزوى الحق فى جلالته .

بهذه الثقة ، وهذا الاطمئنان إلى عدل الناس وفهمهم ، أتقدم إلى القراء بنقد علمى لتلك الطعون الموجهة للقرآن الكريم ، وسأكون واضحاً مفهوماً ، أتجنب التعقيد والمداورة . فإن كسبت اقتناع الناس فذلك ما أريد ، وإلا فلست أُحمِّلهم ذماً ولا لوماً ، وإنما أُحمِّل نفسى الذم واللوم ، وأجعل التبعة علىَّ لا عليهم .

وأعِد القراء وعداً صادقاً — ووعدُ الحرِّ دَيْنٌ عليه — ألا أُخضِع هذا النقدَ إلا للعلم وحده ، وألا أتحاكم فيه إلا إلى قضايا المنطق وما أثبته التاريخ ، وألا أقول فيه : هذا كفر ، أو هذا يخالف الدين ، وإنما أقول : هذا يناقض الواقع ويخالف التاريخ ؛ لئلا يقولوا : نحن نبحث بحثاً علمياً ، وأنت تخضعنا للدين !

فأنا أناقشهم فى هذا النقد كما يناقش رجلٌ رجلاً آخر نقَدَ كتاباً من غير الكتب المقدسة ، فيعرض نقده على الكتاب ليرى : أهو يطابق الواقع أم يخالفه ؟ .. ولا يجعل من أدلته : أن هذا الكتاب مقدس لا يليق أن يُطعن فيه هذا الطعن ، أو أنك كفرت بهذه الجرأة المنكرة وخرجت عن قواعد الدين .

هذا وعد قطعته على نفسى ، فلا يقولنَّ أحدٌ بعد ذلك : هذا تفكير حُر .. فليس معنى حرية التفكير ألا يتقيد المرء بقواعد العلم ، وأن يَخرُج عن قضايا العقل وينافر المنطق والبرهان .

وسيكون شأنى مع النقد لا مع الناقد ، وسأرد عليه كشبهة لم يُعرَف قائلُها ، وسأعرض للشبهة دون أن أعرض لصاحبها ؛ ليعلم الناس أننى إنما أردت خدمة العلم لا التشفى من أحد ، فإذا انتهيت من إقامة الدليل عرفت الناس منزلة هذا الناقد من البحث ، ومبلغه من العلم .

تلخيص المطاعن

يتضمن هذا الطعن فى القرآن أموراً :

(1) أن القسم المكى يمتاز بالهروب من المناقشة ، وبالخلو من المنطق ، فيقول : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) [الكافرون 1 ، 2] إلى قوله (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) [6] . أما القسم المدنى فيناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين ، فيقول : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء 22].

(2) أن القسم المكى منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، كالعنف والشدة ، والقسوة والحدة ، والغضب والسباب ، والوعيد والتهديد ، مثل (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) [المسد 1] (وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) [العصر 1 ، 2] (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) [الفجر 13] (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) [التكاثر 5 ، 6]. أما القسم المدنى فهادئٌ لَيِّنٌ وديعٌ مُسالمٌ ، يقابل السوءَ بالحسنى ، ويناقش الخصومَ بالحُجَّة الهادئة .

(3) أن القسم المكى يمتاز بتقطُع الفكرة ، واقتضاب المعانى ، وقِصَر الآيات ، والخُلُو التام من التشريع والقوانين ، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم . أما القسم المدنى فأفكاره منسجمة متسلسلة ، ترمى أحياناً إلى غايات

اجتماعية وأخلاقية ، وفيه هدوء ومنطق وتشريع وقصص وتاريخ، وفيه التشريعات الإسلامية ، كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع والمعاملات .

(4) لا شك أن هذا الرُقى الذى حدث للقرآن فى القسم المدنى أثرٌ واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التى ثقَّفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة ، يشهد بها هذا التطور الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن . وهذا يتضمن أن النبى تعلم من اليهود ، وأن القرآن من عمله ، فلما اكتسب ثقافة من اليهود ظهر ذلك فى أسلوب القرآن المدنى .

(5) أن الحروف العربية غير المفهومة المفتتح بها أوائل بعض السور ، إما أن يكون قُصِد منها التعمية أو التهويل ، أو إظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف ، أو هى رموز لتميز بين المصاحف المختلفة ، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً .

n

النقض والتفنيد

((تفنيد الطعن الأول))

(1) الفرق بين المكى والمدنى من القرآن

أصحيح أن القسم المكى من القرآن كان خالياً من المنطق ، وكان يهرب من المناقشة ، وأن القسم المدنى هو الذى كان فيه الحجة والبرهان ؟

إننا نجيب على ذلك :

أولاً : بتسليم أن القسم المدنى فيه برهان ومنطق .

وثانياً : بأن القسم المكى كذلك مفعم بالمنطق والبرهان ، وأنه ما كان يهرب من المناقشة ، بل كان يقرع بالحجة ، ويصول بالدليل .

وإن الناقد نفسه ليعيننا على نفسه ، ويقدم لنا الدليل على نقض قوله ، فهو يلقى اليد بأن قول الله (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء 22] فيه حجة هادئة ، وبرهان ساكن رزين ، ولكنه يزعم ــ باطلاً ــ أنها من المدنى لا من المكى .

ونحن نقول له وللناس جميعاً : إنها مكية لا مدنية !

وإثبات ذلك سهل يسير ، فتلك الآية من سورة الأنبياء ، وسورة الأنبياء مكية ، ارجعوا إلى أى كتاب مـــن تلـــك الكتب التى ميزت المكى من المدنى ، تجدوا ذلك موضحاً ، بل ارجعوا إلى أى مصحف من المصاحف ، تجدوا هذه الآية فى سورة الأنبياء ، وتجدوا سورة الأنبياء قد كتب فى أولها أنها مكية، وآياتها 112 آية ، وأنها نزلت بعد سورة إبراهيم .

فإن لم يكف هذا ، وأبيتم إلا أن تسمعوا أقوال المؤرخين الذين ميزوا المكى من المدنى ، نقلنا لكم ما قالوه :

قال فخر الدين الرازى فى تفسيره : سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مائة واثنتا عشرة آية مكية .

وقال السيوطى فى (أسباب النزول) : إنها مكية .

وقال صاحب (روح المعانى) : إنها نزلت بمكة ، كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضى الله عنهم .

وفى (البحر) أنها مكية بلا خلاف . وأطلق ذلك فيها .

واستثنى منها فى (الإتقان) قوله تعالى (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا) الآية [44].

وقال الشهاب على البيضاوى : إنها مكية بالاتفاق ، وسميت بذلك لذكر قصص الأنبياء فيها.ا.هـ.

فأنتم ترون أن علماء هذا الشأن قد حكوا الاتفاق على أنها مكية ، ولم يحك أحد أن فيها آية مدنية إلا السيوطى ، فإنه استثنى منها فى الإتقان آية (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)[44]. ومن ذلك نعلم أن الكلَّ مُجمعون على أن ما عدا آية (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ) من سورة الأنبياء مكى ، ومن ذلك آية (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [22] فهم مجمعون على أنها مكية ، ولم يخالف أحد من أهل العلم فى ذلك .

*****

هذه سقطة لا يئل من سقطها لليدين وللفم !

أكان يظن ظانٌ أن هذا المعترض الجرىء يقدم بيده الحجة لخصمه عليه ، ويفند قوله بقوله ، ويكون عوناً لنا على نفسه ؟!

مثل هذا الناقد ، فيما كبا بِه ، مثل من يقول : إن إنكلترا لم تُرزق فى عصورها المختلفة شاعراً مجيداً ، وأما فرنسا فقد رُزِقَت من الشعراء النوابغ عدداً ليس بالقليل ، هذا شكسبير شاعر فرنسا العظيم ، تعجز إنكلترا أن تجىء بمثله !

صه ! .. لا يسمعك الناس ! .. إن شكسبير شاعر إنكليزى لا فرنسى ، وما دمت قد أعطيت اليد بأنه شاعر عظيم ، وما دام الواقع يثبت أنه إنكليزى ، فقد نقضت دعواك أن إنكلترا لم تُرزق بشاعر نابغ .

لقد قرأت القرآن ، واستقرأت مكيه ومدنيه ، فرأيت أقوى البراهين وأروعها ، وأظهرها وأنصعها، وأقمعها للجاحد ، وأملكها لقوى المعاند ، هى تلك البراهين المبثوثة فى القسم المكى من القرآن ، وأن القسم المكى لم يكن يهرب من المساجلة ، وإنما كان يقتحمها ، وما كان يُوَلّى الأدبار ، بل كان يُقْدِم على الخصوم إقدام الواثق بقوته ، المؤمن بحجته ، المطمئن إلى عزة الحق وفوز اليقين .

لم يَدَع القسم المكى مطلباً من مطالب أصول الإيمان إلا أقام الدليل عليه ، ولم يَدَع شبهة من شبه الكافرين إلا دفع فى صدرها بالحجة .

لا أدرى كيف تَسنَّى للطاعن أن يزعم خُلوَ القسم المكى من المنطق ، وهروبَه من المناقشة !!!

ألا يعلم أنه ينكر ــ كما يقول رجال القانون ــ الوقائع المادية ، وأنه ليس أسهل على خصمه من أن يُرِيَه ويُــرِى الناس تلك الحجج والمناقشات التى فى القسم المكى ، وأن يُبين له ما فيها من منطق وبرهان ، فتكون الفضيحة ، وتكون الهزيمة ، وهذا ما سنفعله .

أكبر الظن أن الطاعن لم يفهم أدلة القسم المكى ، ولا براهينه ، وأعجزه أن يستبطن حجتها ، فتورط فيما تورط فيه ، ولا أظن أنه يعلمها ويغالط فيها ، لأنى لا إخال خصماً يحترم نفسه ، يلجأ فى المغالطات إلى إنكار الوقائع المادية ، بــل هو يلجا إلى ما هو أصعب هدماً ، وأشد التواء على خصمه .

وسأسوق إليكم نماذج من مساجلات القسم المكى ، وما فيها من منطق ، لتكون عنواناً على ما وراءها ، فتعلمــوا كم أساء صاحب هذا الطعن إلى العلم وإلى التاريخ .

النموذج الأول
الحجج على البعث

وفيه شواهد

قد كان العرب ينكرون البعث لشُبه قامت عندهم *، فحكى الله مذهبهم وشُبَهَهم ، وكَرَّ عليها بالحجج المبطلة لهــا والمثبتة للبعث .

الشاهد الأول

قال فى سورة ق المكية : (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ . قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ . بَلْ كَذَّبُوا بِــالْحَقِّ لَمَّــا

* إنما أنكر البعث من أنكره منهم ومن غيرهم لاستبعاد وقوعه ، والعجب من حكايته ، كما يعلم من الشواهد الآتية

جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ . أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ . كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ . وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ . أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) [**1 ــ 15**] .

هم يستبعدون البعث والإعادة ، فيقول لهم : لقد خلقنا ما هو أعظم ، أفلم تنظروا إلى السماء فوقكم كيف بنيناها ؟ وإلى الأرض تحتكم كيف مددناها ؟

ثم قال : انظروا إلى الماء كيف نجريه إلى أرض قاحلة لا زرع فيها ولا حياة فنحييها به ، فتخرج جنات وحب الحصيد ، كذلك الخروج ، خروجكم من أجداثكم .

ثم قال : (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ؟ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) أفعجزنا عن خلقكم أولاً حتى تنكروا خلقكم ثانياً ؟ من قدر على البدء فهو قادر على الإعادة ، بل هى عليه أهون .

أفهروب هذا من المناقشة ، أم تَقحُّمٌ فيها ؟! أخلو هذا من المنطق ، أم أنتم لا تبصرون ؟!

الشاهد الثانى

فى سورة سبأ المكية : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ . أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) [**7 ــ 9**]

فهم يعيدون الشبهة ، ويعيد عليهم الحجة بالأساليب المختلفة .

ولقد أبرز هذه المحاجة فى صورة تُبيِّن خذلانَهم وإفحامهم ولجاجهم ، وهروبَهم من الحجة حين أقامها علــيهم ، إلى شىء لم يكن موضع جدال ، ولا وقعت فيه خصومة .

الشاهد الثالث

قال فى سورة الإسراء المكية : (قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا) [50 ، 51]

يقول : قُل : كُونُواْ حِجَارَةً ، أَوْ حَدِيدًا ، أو خلقاً مما ترونه عظيماً لا يلين للطالبين ، ويُعجز القادرين ، فَسَيَقُولُونَ : مَن يُعِيدُنَا ؟ قُلِ : الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فالذى خلقكم أولاً يعيدكم ثانياً ، فسيحركون إليــك رءوســهم عجــزاً واستخذاء ، ويهربون من الحجة إذا بهرت ، ومن البينة إذا سطعت ، ويقولون : مَتَى هُوَ ؟ .. أتجِدُّون أم تهزلــون ؟! .. هل كان النزاع فى : متى هو ؟ أم كان النزاع فى إحالته ؟ .. ولكن الله لم يشأ إعناتهم ، فقال لنبيه : (قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا) .

الشاهد الرابع

قال فى سورة القيامة المكية : (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [36 ــ 40]

بلى هو قادر !

الشاهد الخامس

فى سورة يس المكية : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِــدُونَ . أَوَلَــيْسَ الَّــذِي خَلَــقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [78 ــ 83]

ما أبلغ قوله (وَنَسِيَ خَلْقَهُ) !! .. أى : لو ذَكَر خلقَه لَما أنكر الإعادة .. وهذا كما تقول لمن أحسنت إليه وجحد الإحسان : أتجحدنى إحسانى إليك وتنسى الثياب التى عليك ؟!

ولما كان تعذر الإعادة إنما يكون لقصور علمه ، أو لقصور قدرته ، بيَّن أنه لا جهل عند من هو بكل شىء علـــيم ، ولا عجز عند من خلق السموات والأرض ولم يَعىّ بخلقهن .

النموذج الثانى

البراهين على وجود إله للعالم وخالق للكون فى القسم المكى

وفيه شواهد

الشاهد الأول

قوله تعالى فى سورة النبأ المكية : (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا . وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا . وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا . وَجَعَلْنَا نَـــوْمَكُمْ سُبَاتًا . وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا . وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا . وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا . وَأَنزَلْنَـــا مِـــنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا . لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) [6 ــ 16]

الشاهد الثانى

فى سورة عبس المكية : (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِه . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) [24 ــ 32]

الشاهد الثالث

فى سورة الفرقان المكية : (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا . وَهُوَ الَّذِي جَعَــلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) [61 ، 62]

وما تلونا عليك يشير إلى دليل برهانى ، ليس أسطع ولا أقوى منه ، وهو مع ذلك على غاية من الوضوح والسهولة ، يكاد يكون فى طبيعة الخلق جميعاً .

فهو يشير إلى أن هذا الكون خُلق ككائن واحد ، وأن بعضه مكمل لبعض ، والغاية والعناية تظهران فى كل ما فيه ، فقد مُهدَت الأرضُ لتصلح لسكنى الإنسان والحيوان والنبات ، وجُعِلت الجبالُ لتمسكها أن تزول ، وخُلِق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات ليتوالدوا ويَعمُر بهم الكون .

وجُعِل الليلُ سكناً لهم ، والنهارُ ليزاولوا فيه معايشهم ، وجُعِلت السماءُ بحيث لا تنطبق على الأرض ، وجُعِلت فيها الشمسُ سراجاً مضيئاً ، بل أين منها كل السرج والثريات الكهربائية فى جميع أنحاء المعمورة ؟ إنها لا تغنى غناءها ، ولا تضيء ضوءها ، ولولاها لكان الناس فى ظلام دامس ، تثقل عليهم الحياة ، ولا يقدرون على تحصيل عيشهم ومتعهم ، وكما أنها منبع النور هى منبع للحرارة التى بها الحياة ، ولولا الحرارة التى تنمى الكائنات ، لما وُجِدت حياة حيوان ولا نبات .

وأُنزِل ماءٌ كثيرٌ كان به حياة الناس فى سقيهم وإخراجِ الزروع التى بها حياتهم وحياة مواشيهم .

وكل هذا يدل على أن له خالقاً خلقه ، ورتبه هذا الترتيب المحكم ، ونظمه هذا النظام البديع ، وأراد منه هذه الفوائد ، إذ قد جُبِلت العقول وأُودِعت الفِطَر أن كل فعل منظم ، فيه غاية معينة ، فهو عن فاعل ، لم توجده المصادفة ، ولم يوجد وحده .

ومثل الدهرى الذى ينكر الآلة ، كمثل رجل يرى ساعة دقاقة ، ذات عقارب وتروس وعدد ومسامير ، قد فُصِّلت ورُكِّبت أجزاؤها ليدير هذا ذاك ، وذاك هذا ... إلى الأخير ، فيدير العقربين ، فتسيران على سطح مقسم إلى اثنى عشر قسماً ، وكل قسم إلى خمسة أقسام ، لتدلا على الساعات والدقائق .. ثم يزعم أن هذا الصنع المحكم ، والنظام المتقن ، الذى شملته العناية ، وعمَّته الغاية ، وأُريدَ منه شيء مخصوص ، بحيث لو فَقَد جزءاً من أجزائه ، أو لو رُكِّب أى جزء منه غير هذا التركيب ، أو وُضِع غير هذا الوضع ، لما تحركت الساعة هذه الحركة المنتظمة ، ولما دلت على أجزاء الزمن ومعرفة الأوقات .. نقول : يزعم أن هذا الصنع المحكم أوجدته المصادفة ، وليس له فاعل مختار !

هوسٌ تنبو عنه الفِطَر ، وتَمُجُّه العقول !

وإن أى جزء من الكون أشد تعقيداً وأكثر آلات من الساعة .

هذا الإنسان ــ مثلاً ــ : كم فيه من آلات دقيقة وأجهزة . وكم فيه من أعضاء خفية لها وظائف لولاها لم تَقُم حياته به ، فجهاز للتنفس ، وجهاز للهضم ، وجهاز للدورة الدموية ، وآلات للشم ، وأخرى للبصر ، وثانية للسمع ، وثالثة للحس ، ورابعة للحركة ، وإن كل ما فيه ليؤدى وظيفته .

ثم إنه رُكِّب على نحو من التركيب المحكم الصنع ، المنظم الوضع ، ليتمكن من أداء تلك الوظيفة ، تمكناً سهلاً مريحاً ، فاليدان ــ مثلاً ــ جُعِلتا بحيث يعمل بهما المرء من غير عنت ومشقة ، ولذلك كانتا ذواتى مفاصل عدة ، صالحة للانقباض والانبساط ، ولو جعلت اليد كالخشبة لما أمكن أن تؤدى مهمتها .

وإذا كانت الساعة ، لما فيها من تركيب ودقة ، يُحيل العقل أن تكون صدرت إلا عن فاعل ، فبالحرىّ يُحيل العقل أن يكون الإنسان صادراً إلا عن فاعل .

وكذلك قل فى كل ما فى الكون من أجزاء ، ففيها تناسب فى نفسها ، وهى مناسبة بعضها لبعض .

وهذا هو الدليل الذى أشارت إليه الآيات المكية التى تلوناها عليك ، وهو مع سهولته ــ التى يفهمه لأجلها الجمهور ــ برهانى ، يقبله أولو العلم ويقنعهم ، ولكنهم يَفْضُلُون العامةَ فى فهمه ، لا من جهة أنهم يطلعون على حكم كثيرة فى الكون أكثر مما يعلمه الجماهير فقط ، بل من جهة الكيفية أيضاً ، فعالم التشريح مثلاً يعلم من خواص الأعضاء أكثر مما يعلم الجمهور ، ويعلم كيفيتها ودقتها ، ولذلك كلما ازداد المرء علماً بالكون ازداد علماً ويقيناً بوجود الخالق وقدرته وعلمه وعظمته ، إذا انساق مع فطرته ، ولاحظ ما نبهنا إليه .

نقل الفيلسوف سبنسر عن الأستاذ هكسلى ما يأتى :

" ليس العلم الطبيعى منافياً للدين ، بل المنافى للدين هو ترك ذاك العلم ، والامتناع من دراسة المخلوقات المحيطة بنا ، وإليك مثلاً حقيراً ..

" إذا كان أحد الكتاب لا تزال الناس تمدحه ، وتثنى عليه بأبلغ عبارات الشكر والتمجيد ، وإذا كانت مواضع هذا الحمد والثناء هى حكمة مؤلفات ذاك الكاتب وجلالها وجمالها ، وإذا كان مادحو تلك المؤلفات يكتفون بالنظر إلى ظواهرها ، فهم لم يفتحوها قط ليفهموا ما تحتويه ، فأى قيمة تكون إذا لذاك الثناء والمدح ، هذه ــ إذا قست الأمور ــ حال البشر عموماً إزاء هذا الكون وصانعه ، فالتوجه للعلم الطبيعى عبادة صامتة ، هى اعتراف صامت بنفاسة الأشياء التى تعاين وتدرس ، ثم بقدرة خالقها، فليس التوجه للعلم تسبيحاً شفهياً ، بل هو تسبيح عملى ، ليس هو باحترام مدعى ، بل احترام أثبتته تضحية الوقت والتفكير والعمل " .

الشاهد الرابع

فى سورة الغاشية المكية : (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) [17 ــ 26]

هذا حَضٌّ على النظر فى الطبيعة ومعرفةِ أسرارها ، ليتوصل من ذلك إلى معرفة المبدع الأول ، فقد اتحد الطريقان طريق الفلاسفة الطبيعيين ، وطريق القرآن الكريم .

النموذج الثالث

ما أقام من الأدلة على وحدانية الله

وفيه شواهد

الشاهد الأول

فى سورة الأنبياء المكية : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [22]

الشاهد الثانى

فى سورة المؤمنون المكية : (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّه قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّه قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَن بِيَدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّه قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ . بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[84ـ92]

النموذج الرابع

مناظرته إياهم عندما كانوا يحاورونه فى نفى رسالته

وفيه شواهد

الشاهد الأول

فى مفتتح سورة الأنبياء المكية : (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) [1 ـ 3] ... إلى أن قال : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) [7]

استبعدوا أن يكون محمداً رسولاً نبياً لأنه بشر مثلهم ، فقال الله رداً عليهم (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ) نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء السالفين وأنبياء بنى إسرائيل (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ) من اليهود والنصارى (إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) .

الشاهد الثانى

فى سورة الفرقان المكية : (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا . انظُرْ كَيْفَ

ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا) [7 ـ 10] إلى أن قال : (وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) [20]

الشاهد الثالث

فى سورة الأحقاف المكية : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) [8 ، 9]

النموذج الخامس

مناظرته إياهم حينما زعموا أنه يعلمه بشر

فى سورة النحل المكية : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) [103]

النموذج السادس

مناظرته إياهم حينما كانوا يرون أن العاقبة لهم

وهو يرى أن العاقبة للمؤمنين

وفيه شواهد

الشاهد الأول

فى سورة القمر المكية ، قال عُقَيْب إخباره عن عقوبات الأمم المكذبة لرسلهم كقوم فرعون وعاد وثمود : (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) [43 ـ 45]

يقول : أهلكت هذه الأمم لأنهم كذبوا الرسل ، وأعرضوا عن هدايتهم ، وأصروا على شركهم وخرافاتهم ، وأنتم مثلهم ، فسيصيبكم ما أصابهم ، وإذ كنتم شركاء فى علة الهلاك ، فأنتم شركاؤهم فى وخامة العاقبة وسوء المنقلب .

الشاهد الثانى

فى سورة الأحقاف المكية ، فى شأن قوم عاد : (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون) [24 ـــ 26]

يقول : ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، فحكمكم كحكمهم ، وإذا كنا قد أهلكناهم بمعصية رسولنا، فلم يدفع عنهم ما مكنوا فيه من أسباب العيش والقوة ، فأنتم كذلك تسوية بين المتماثلين اللذين اشتركا فى علة الحكم .

الشاهد الثالث

فى سورة الأنعام المكية : (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ * وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ. وَلَوْ نَزَّلْنَا

* جاء فى نكتة البلاغة ودقة اللغة فى الآية من تفسير المنار ، أن فيها احتباكاً تقديره (مكناهم فى الأرض ما لم نمكنكم ، ومكنا لهم ما لم نمكن لكم) ومعنى الأول : أنهم كانوا أشد منكم قوة وتمكناً فى أرضهم ، فلم يوجد حولهم من يضارعهم فى قوتهم ، ويقدر على سلب استقلالهم . ومعنى الثانى : أننا أعطيناهم من أسباب التمكن فى الأرض وضروب التصرف وأنواع النعم ما لم نعطكم . فحَذَفَ من كل من المتقابلين ما أثبت نظيره فى الآخر ، وهذا من أعلى فنون الإيجاز الذى وصل فى القرآن إلى أوج الإعجاز ، ويصدق كل من التمكينين على قوم عاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم كما يعلم من قصص الرسل فى القرآن ومن التاريخ العام

عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ . وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ . قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) [6 ــ 11]

أمر بالسير فى الأرض ليعتبروا ، وليعلموا ما حاق بالمكذبين المستهزئين الفاسقين عن السنن الإلهية ، وللكافرين أمثالها .

أيها السائل عما مضى .. .. من علم هذا الزمن الذاهب
إن كنت تبغى العلم أو نحوه .. .. فى شاهد يخبر عن غائب
فاعتبر الشىء بأشباهه .. .. واعتبر الصاحب بالصاحب

* * * * *

تأن فى الأمر إذا رمته .. .. تبين الرشد من الغى
لا تتبعن كل نار ترى .. .. فالنار قد توقد للكى
وقس على الشىء بأشكاله .. .. يدلك الشىء على الشىّ

الشاهد الرابع

فى سورة المزمل المكية : (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا . فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا . فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا . السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) [15 ــ 18]

يقول : إنا أرسلنا محمداً إليكم كما أرسلنا إلى فرعون موسى ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ، فهكذا من عصى منكم محمداً .

لقد كان فى بعض ما أوردناه من الآيات كفاية فيما قصدناه ، من إثبات مساجلة القسم المكى من القرآن الخصوم ، وعدم هروبه من المناقشة ، وإثبات أن فيه منطقاً وعقلاً ، ولكننا أردنا أن نطيل النفس فى هذا الموضوع لتكون الحجة ألزم ، والبينة أسطع ، ولأنها دراسة نافعة لقسم عظيم من القرآن ، يتبين فيها المرء كيف كان جداله مع خصومه ، ويستعرض فيها شبه الخصوم ورده عليها ، وأظن أن هذه دراسة نافعة وغير مملة ، إن لم نقل إنها شيقة وممتعة ، فمن شاء فليقتصر على ما قدمناه ، ومن أراد المزيد من هذا الدرس ، فليقرأ القسم المكى منه ، ففيه من هذا الشىء الكثير ، وقد فتحنا لكم بابه .

لقد علمنا من كل ما تقدم أن القسم المكى من القرآن يكاد يكون كله حجاجاً وجدلاً مع الكافرين !

وفيم كان يتكلم ، إن لم يكن يحاور ، ويرد الشبهة ، ويفلج بالحجة ؟!

وإن الذى يزعم أنه كان يهرب من المناقشة ، وأنه خال من المنطق ، لم يدرس هذا القسم منه فجهله ، أو هو قد درسه وعلم ما فيه ، ووثق من أن سامعيه لم يدرسوه ، فأراد أن يُلَبِّس عليهم ويُزَوِّر ، ورأى المجال واسعاً للبس والتزوير .

* * * * *

وأما سورة الكافرون التى استدل بها على هروبه من المناقشة ، فليس يأخذ أحد منها الهروب من المناقشة ، فقد ذكر المؤرخون فى سبب نزولها ، أن كفار قريش طلبوا من محمد [عليه الصلاة والسلام] أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا هم إلهه سنة ، فنزل : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) إيئاساً لهم ، وسداً لطمعهم أن يلين محمد أو يعترف بعبادة ما كانوا يشركون .

على أنه إذا لم يطلع المرء على سبب هذا النزول ، لا يمكن أن يفهم منها الهروب من المناقشة ، إذ هو يراه فى جميع الآيات قد أقام الحجج وأخذ بمخانقهم ، وسد عليهم كل باب *، ثم جاءهم فى هذه الآية فقال : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ

* أو كما قال الإمام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز : قد أسَالَ عليهم الوادى عجزاً ، وأخذ عليهم منافذ القول أخذاً

) كما يقول القائل لمن أقام هو عليه الحجة : قد أقمت الدليل ، ووضحت السبيل ، ولك بعد ما تختار ، لك ما تريـــد ، ولى ما أريد ، إدلالاً بقوته ، وتبكيتاً لخصمه ، وإشعاراً له بأنه إذا سلك ما سلك ، فعـــن ضـــعف فى العلـــم والإرادة والاختيار ، وعن جهل بالنافع والخير.

أهذا هو النقد العلمى ، والبحث المنطقى ؟!

اللهم إن القوم قد تلاعبوا بالألفاظ ، وبعدوا بها عن معانيها ، وأطلقوها على أضدادها !

فهذا النقد يصح أن يسمى أى شيء إلا اسم العلم ، وأن يدخل فى أى باب إلا باب البحث .

سموا الأشياء بأسمائها ، ودعوا الخداع والمراوغة ، وقولوا : إلحاد باسم العلم نسميه ، وضلال باسم البحث نُزْجِيْه ، وما بنا خدمة البحث والتفكير ، ولكن بنا فتنة أبناء المسلمين عن دينهم ، لحاجة فى دخيلة النفس ، نجمجم دونهـــا ولا نظهرها ، ونظهر غيرها ونسترها !

n

تفنيد الطعن الثانى

أصحيحٌ أن القسم المكى من القرآن يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، كالعنف والشدة ، والقـــسوة والحـــدة ، والغضب والسباب ، والوعيد والتهديد ؟!

لقد قال الناقد ذلك ، واستدل بسورة (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) [العصر 1 ، 2] (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) [الفجر 13] (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) [التكـــاثر 5 ، 6] ، وزعم أن القسم المدنى وديع مسالم يقابل السوء بالحسنى .

ونحن نخالفه فى هذا ، ونرى أن القرآن جميعه يمتاز بكل أنواع السمو والرفعة ، والوقار والجلال، فهو إذا اشتد فعلى الفاسقين المفسدين يشتد ، وإذا لان فللصالحين الأخيار يلين ، ولا تنس أن شدته هذه ولينه فى الوعد والوعيد ، وكلاهما لصلاح النوع الإنسانى ، وما يُعاب كتاب كالقرآن بذلك .

أما الآيات التى استدل بها على أن فى القرآن سباباً ، وما إلى ذلك من مميزات الأوساط المنحطة ، فسنناقشه فيها آية آية .

براءة سورة (تبت يدا) من هذه العيوب

أما سورة (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) فليس يعرف الناقد سبب نزولها ، ولذلك تورط فيما تورط فيه ، ونحن نسوق سبب نزولها ومعناها ؛ ليعلم الناس أنها ليست سباباً ، وإنما هى وعيد وإنذار .

أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم الصفا، فقال : " يا صباحاه " ، فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ قال : " أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوننى ؟ " ، قالوا : بلى ، قال : " فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد"، فقال أبو لهب : تباً لك ! ألهذا دعوتنا وجمعتنا ؟ .. فأنزل الله (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) إلى آخرها .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس فى قوله (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) قال : كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبى صلى الله عليه وسلم ليعقره وأصحابه . ويقال : حمالة الحطب : نقالة الحديث .

فهو ينذر أبا لهب بأنه خسر ، وسيصلى ناراً ؛ لأنه لم يؤمن بالله ، وصد عن سبيله ، وستكون امرأته كذلك ؛ لعدم إيمانها ، ولأنها تؤذى النبى وأصحابه بوضعها الشوك فى طريقه ليعقره ، أو لأنها تنقل الحديث وتمشى بالنميمة بين الناس .

أرأيت الآن أنها ليست سباباً ، وإنما هى إنذار ووعيد لأبى لهب وامرأته لصدهما عن الإسلام ؟!

وهذا الإنذار لخير أبى لهب وامرأته ، وخير العالم ، إذ من خير العالم ألا تقام العراقيل فى سبيل مرشديه إلى طريق الخير ، وهاديه إلى سواء السبيل ، ومجدديه كلما بَلى وتعفن ، وطغت فيه الرذيلة على الفضيلة .

براءة سورة (والعصر)

وأما سورة (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) فلا أدرى ما فى هذه من حدة وعنف وسباب !!!

إن السورة تشير إلى قضية ثابتة من قضايا الكون التى تتغير الأرض ومن عليها ولا تتغير ، وهى أن الناس قسمان : قسم قوى إيمانهم ، ورسخ يقينهم ، وعملوا الصالحات ، واستمسكوا بالحق وبالصبر ، فاعتدلت قوقم العلمية ، واستقامت أعمالهم ، وحسنت أخلاقهم ، وكان رائدهم الحق ، وأعمالهم مبنية على الصبر ، وهم يتواصون فيما بينهم بالحق والصبر ، فيأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وهؤلاء هم الذين كتب لهم الظفر بالسعادة والنجاح .

وقسم على النقيض من سابقيهم ، قد ضعف إيمانهم ، وزلزل يقينهم ، وكانت أعمالهم ظالمة وجائرة ، وأخلاقهم فاسدة ، ولم تكن للحق سيطرة على قلوبهم ، وكانوا ضعفاء الإرادة ، لا يثبتون على شىء ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، فهؤلاء فى خسار وفى تبار .

هل اختبار الأفراد والأمم من بدء الخليقة إلى الآن ، ألا يصدق هذه القاعدة الخلقية الأبدية ؟!

والقسم المكى قد ذكرها ليحض الناس على أثمن ما فى الكون ، وهو اليقين ، وحب الحق ، وعمل الصالح ، والصبر على ما فى الوجود من شدائد ، والتواصى بالخير ، ولينفر الناس من أضدادها .

ثم الناقد يزعم هذا السمو فى العلم ، وهذا الحب للخير ، عنفاً وشدة وسباباً !!

ليسمها ما شاء من أسماء ! .. فستبقى دائماً أم الفضائل ، وكنزاً من كنوز الوجود ، ومنبعاً عظيماً للخير والفضيلة .

أليس من الانتكاس فى الخلق ، والتردى إلى أسفل دركات الهمجية ، والارتكاس فى هاوية الانحطاط والضعة ، أن يستقبح امرؤ سورة (والعصر) ويعيبها ، ويستجيد أبيات المجون والخلاعة ، كقول أبى نواس :

اذكــر الخمــر بآلائها .. .. وسمها أحسن أسمائها

إن هذه السورة لا تثقل إلا على نَفورٍ من الفضيلة ، نَزّاعٍ إلى الرذيلة ، فيكربه ما فيها من فضائل علمية وعمليــة ، ولست أعلم أحداً تثقل عليه إلا اثنين : إبليس الرجيم ، وهذا الناقد الماجن !

انظروا : هل تقدمت أمة أو رقى فرد إلا بهذه الفضائل ؟ .. وهل انحط فرد أو أمة إلا بشيوع أضدادها من الرذائل فيها ؟ .. أليس فقدان الإيمان أو ضعفه مما يضعف الأمة ؟ .. أليست الأعمال الفاسدة من الظلــم والرشــوة وأكــل السحت وعدم احترام الحق وعدم التواصى به .. مما يضعفها أيضاً؟ .. أليس خور العزيمة وفقدان الصبر مما يبيد الأمــم ؟ .. أليست هذه الرذائل مجتمعة فى أمة قاضية وشيكاً بزوالها من الوجود ؟

لو قُدِّر أن يبيد هذا العالم ، وما فيه من علم وأدب وحكمة ، ونشأ جيل جديد ، لم يرث شيئاً مــن علــم الأولــين وأخلاقهم ، ولكنه بقى له سورة (والعصر) .. لكان فيها سداد من عوز ، وعوض عن الجميع ، ولجاز أن تكون مــادة إصلاح يحيا عليها ذلك الجيل الجديد ، ويجد فيها أصول الفضائل العلمية والعملية .

قال الأستاذ الإمام فى تفسير هذه السورة : " ثم تراها لم تدع شيئاً إلا أحرزته فى عباراتها الموجزة ، حتى قال الإمــام الشافعى رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم . وقال : لو لم يترل من القرآن سواها لكفت الناس ، ولجلالة ما جمعت روى أنه كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا التقيا لم يفترقا ، حتى يقرأ أحــدهما على الآخر سورة (والعصر) ، ثم يسلم على الآخر ، ذلك ليُذَكِّر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه " ا.هــ. *

* وجملة القول فى السورة أنها قررت قاعدة اجتماعية لنوع الإنسان ، أنه يكون فى خسر من سيرته وعمله فى زمنه ، إلا الذين يجمعون بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح فى حياتهم الشخصية ، وبين التواصى بالحق والتواصى بالصبر الذى يعينهم على النهوض به فى حياتهم الاجتماعية ، فليس فى هذه الحكمة العالية سب ولا غلظة على أحد ولا على قوم ،

* * * * *

وما قيل هناك يقال مثله فى هذه السورة الكريمة (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

فهذه السورة تسمو بالناس عن رذائل حطام الدنيا ، وترتفع بهم إلى الروحانيات والفضائل الباقية، فتقول لهم : ألهاكم عن الخير التكاثرُ من الأموال ، وعرضِ الدنيا الفانى ، ثم تحذرهم عاقبة ذلك .

وفى الحق ما أفسد الناس إلا تكالبهم على الدنيا ، قال صلى الله عليه وسلم : " الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم ، وإنهما مهلكاكم ". *

وقال : " ما ذئبان جائعان ، أرسلا فى حظيرة غنم ، بأفسد لها ، من حب المرء للمال والشرف ". *

فإذا جاءت هذه السورة تنهى الناس عن التكاثر ، وتحذرهم عاقبته الذميمة ، وُصِفَت بأن فيها ما فى الأوساط المنحطة من شدة وسباب ؟!!

* * * * *

لأنها بيان لحقيقة حال النوع ، وأما الإقسام عليها بالعصر ، ففيه تعريض بمتبعى الأوهام ، الذين يتشاءمون بالزمان ، وإرشاد إلى أن الوقت هو رأس المال ، وإضاعته هى الخسران

* أخرجه ابن عبد البر فى (جامع بيان العلم) ولم أره فى غيره

* أخرجه ابن عبد البر بهذا اللفظ وأحمد والترمذى من حديث كعب بن مالك بلفظ " أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه " ناط الإفساد بالحرص على المال والجاه ؛ لأنه هو الذى يغرى بمتنكب الرشد واتباع الغى فى طلبهما والتصرف فيهما ، وأما الحب فهو من غرائز الطباع

وأما قوله (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) [الفجر 13 ، 14] فذلك فى القوم الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فهو يخبرنا بذلك لنحذر أن نطغى مثل طغيانهم ، ونفسد مثل فسادهم .

ميل القسم المكى إلى اللين والعفو

وبالجملة ، دعواه أن القسم المكى ينفرد بالحدة والشدة ... الخ .. تكذبها دراسة القرآن نفسه ، وما عُرِف عن القسم المكى من ميله إلى اللين والعفو ..

اقرأ قوله تعالى فى سورة الشورى المكية : (فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [36 ـــ 43]

وقال فى سورة فصلت المكية : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) [33 ـــ 35] *

وقال فى سورة الحجر المكية : (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ . كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ . فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ

* أرشد إلى هداية العقل وتحكيمه فى التفرقة بين الحسنة والسيئة ، وفى عواقب الأعمال وغاياتها فى المعاملة ، وكون الحسنى تحول العداوة إلى الحب والولاية

الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) [87 ــ 99]

اشتمال كل من المكى والمدنى على الوعد والوعيد

ولعله يريد من الشدة والعنف : التهديد والوعيد ، ومن اللين : الوعد .. فإن أراد ذلك ، قلنا : إن المكى فيه وعد وإطماع ، كما المدنى فيه تهديد ووعيد .

ومن عادة القرآن أن يجمع بين الوعد والوعيد ؛ لئلا يقطع الناس الأمل ، أو يتكلوا فيتركوا العمل ..

اقرأ قوله تعالى فى سورة الحجر المكية : (نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ) [49 ــ 50]

وقوله فى سورة الزمر المكية : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [53]

ثم اقرأ فى سورة البقرة المدنية : (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) [24]

واقرأ فى سورة النساء المدنية : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) [10]

ها أنذا إلى الآن فى هذين القسمين قد وفيت بما وعدت ! فلم أخاصم الناقد إلى الدين ، بل خاصمته إلى العقل ، ولم أحتج عليه بأن هذا الكتاب مقدس ، بل احتججت عليه بأن نقده لا يطابق الواقع ، وأقمت له من الشواهد والأمثال ما به يئوب المنصف إلى حظيرة الحق ، ويخزى المكابر ويظل وجهه مُسوَداً وهو كظيم .

وقد وفينا أيضاً بما وعدنا ، من أننا نعرض للفكرة لا لصاحبها ، فناقشنا الفكرة دون أن نعرض للناقد ، وحملنا النفس على مكروهها ، إذ رأينا كلاماً أشبه بهذيان المحموم ، فجادلناه كأنه عن عاقل صَدَر ، وسمعنا ما يغشى النفس فتصبرنا ، وما يهيج الأعصاب فاحتملنا ..

فهل يحلنى القراء بعد ذلك لأقول فى الناقد كلمة ؟!

لا أظن إلا أنهم يحلوننى ! .. فقد ضجروا كما ضجرت ، وأثقلوا كما أثقلت !

كلمة فى هذا الطاعن على القرآن

لقد قرأت ما كتبه دعاة النصرانية والملاحدة ، وما كتبه هذا الناقد فى نقده ، فرأيت ما كتبه هذا الناقد أشد تهافتاً ، وأضعف حجة ، وأقل خضوعاً لقوانين العقل والمنطق ، وذلك ، وإن كان يعمها جميعاً ، ولكن بعض الشر أهون من بعض ! .. وهذا لأن الأولين أعمق علماً ، ولأنهم يستحيون بعض الحياء من مثل هذا التورط الشائن ، وأما هذا الناقد فهو لا يبالى بيومه ؛ لأنه يرى أن أمته أجهل من أن تنقد رأياً علمياً ، وأن سامعيه همج رعاع أتباع كل ناعق ، ولا يبالى بغده ، ولا بحكم الأجيال بعده؛ لأنه إنما يعيش ليومه ، فإذا نفق فيه عند بعض مستمعيه ، فلا يبالى بعد أن تسقطه الأجيال ، أو تخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

يا قوم اعذرونا إذا رأيتمونا نحقر هذا الناقد وأمثاله ! فنحن نعلم من خفاياهم ومن جهلهم ما قد أظهرناكم على بعض منه ، فهم جهلاء ، وقد ألمسناكم جهلهم ، وهذا نموذج لما وراءه .

وليسوا جهلاء فحسب ! .. لأنهم يخدعون العامة ، ويدعون أكثر مما عندهم .. فهم جهلاء وأدعياء .

وليسوا كذلك فحسب ! .. لأنهم يفسدون على الأمة أعز شيء لديها : دينها وأخلاقها ، وهى بدونهما كومة من أنقاض ، لا رابطة تربطها ، ولا جامعة تجمعها .. فهم جهلاء وأدعياء ومفسدون .

وليسوا كذلك فحسب ! .. لأنهم عن علم يفسدون .. فهم جهلاء وأدعياء ومفسدون وسيئو النية فيما يفسدون .

ومعذور من يقف بين القبور ، فيرى الرمم البالية والدود والصديد ، ويظهر منه التقزز والاشمئزاز !

n

تفنيد الطعن الثالث

يقول هذا الطعان : إن القسم المكى يمتاز بتقطع الفكرة ، واقتضاب المعانى ، وقِصَر الآيات ، والخلو التام من التشريع والقوانين ، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم ... أما القسم المدنى فأفكاره منسجمة متسلسلة ، ترمى أحياناً إلى غايات اجتماعية وأخلاقية ، وفيه هدوء ومنطق وتشريع وقصص وتاريخ ، وفيه التشريعات الإسلامية ، كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع والمعاملات .. هكذا يقول الناقد .

تنزيه القسم المكى عن تقطع الفكرة واقتضاب المعانى

إن الذى يقرأ القرآن ولا يتدبره ، ولا يكلف نفسه الصبر لمعرفة أغراضه ، هو الذى لا يستبين كثيراً منها ، فيبدو له متقطع الفكرة ، مقتضب المعانى ، ولكن الذى يتدبره ، وينعم النظر فيه ، ويقرؤه على سبيل الاعتبار ، ويكون مع ذلك قد أوتى طبعاً سليماً ، ودربة على معرفة منطق العرب الذين يكتفون باللمحة والوحى السريع ، يدرك كثيراً من أغراضه ، ويبدو له قصده ، فيرى الآيات الكثيرة فى غرض واحد كالحلقة المفرغة مرتبطة بعضها ببعض أتم ارتباط ، حتى إن السورة الواحدة المكية الطويلة قد تكون فى غرض واحد يشملها ويعمها ، وسأضرب لذلك مثلاً ..

هذه سورة الأنعام المكية ، مقدارها 165 آية ، قد انتظمها غرض واحد ، وهو إبطال الشرك . *

* أى أن موضوعها الأهم المقصود بالذات : إبطال الشرك ، بدحض أوهامه وخرافاته وإثبات التوحيد ، ويليه إثبات الرسالة ودحض شبهاتهم عليها ، مع إلمام بإثبات البعث أيضاً ، فجملة السورة فى أصول العقائد الثلاث ، والوصايا التى فى آخرها هى الحجة الأدبية على حقيتها

فتقرؤها جميعاً ، فتجدها فى هذا الغرض ، وما سيق فيها فهو لهذه الغاية ، ولولا ضيق المقام لاستوعبتها جميعها ، وبينت كيف تتجه إلى هذا الغرض ، ولكننا نشير هنا إشارة موجزة .

بدأ الله تعالى هذه السورة بحمد نفسه ، أو استحقاقه الحمد ، وأنه خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وأنه بعد أن أنعم بهذه النعم يَعْدِل به الذين كفروا الأوثان والأنداد .

وكل ما ذكر بعد يتجه نحو هذه الغاية : إبطال الشرك .

فتجده يقول بعد 12 آية : (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ) [13 ، 14]

ويقول بعد [18 آية] * : (... أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) [19]

ويقول بعد 39 آية : (قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) [40 ، 41]

ويقول بعد 62 آية : (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) [63 ، 64]

* ما بين القوسين [ ] من عندى (متعلم)

ويقول بعد 70 آية : (قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [71]

وما ذكر قصة إبراهيم مع أبيه آزر إلا لأن فيها أدلة على إبطال الشرك : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ . وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) [74 ــ 83]

ويقول بعد 93 آية : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) [94]

ويقول بعد 99 آية : (وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) [100]

وحرَّم فى هذه السورة ما لم يُذْكَر اسم الله عليه ؛ لأنه مما كان يُذكَر عليه أسماء آلهتهم ، فهو شرك . وذكَر من عادهم فى الحرث والأنعام أهم كانوا يجعلون بعضها لآلهتهم ، وهو شرك ، فأبطلها، واستدل على بطلاها : (وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ . وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) [136 ، 137]

ويقول بعد 147 : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ...) [148]*

* بيّن فى هذه الآية بطلان احتجاجهم على شركهم وتحريم ما حرموا من الحرث والأنعام بمشيئة الله تعالى ، كما يحتج إلى الآن بعض المبتدعة والمتصوفة . قالوا : لو شاء الله ألا نشرك لما أشركنا نحن ولا آباؤنا ، ولو شاء ألا نحرم ما ذكر لما حرمنا ، فنحن إنما أشركنا وحرمنا بمشيئته ، ومشيئته تستلزم رضاه ، أو أنه هو الشارع لذلك ..

وقد رد الله تعالى عليهم جهلهم هذا : بحجة تاريخية ، وحجة عقلية ..

أما الأولى فقوله (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم) من أقوام الأنبياء رسلهم ، فيما بلغوهم عن الله تعالى من توحيد الألوهية ، وهو أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وتوحيد الربوبية ، وهو أن الشارع للدين هو رب العالمين ، فلا يحرم عليهم إلا ربهم ، فليس لأحد أن يقول عليه أنه حرم شيئاً بغير علم من وحيه ، كما قال فى أصول المحرمات من سورة الأعراف المكية : (وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) [33] أى : كذب الذين من قبلهم رسلهم كما يكذبك هؤلاء يا محمد (حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا) أى : عذابنا ، فلو كان راضياً عن عملهم لما عذبهم ..

وأما الحجة العقلية ، فقوله لرسوله : (قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) إثباتاً لزعمكم هذا ، فإن القول فى صفات الله وأفعاله وأصول دينه وتشريعه لا يصح إلا بعلم يقينى يثبته ، وما عندكم شىء من علم بهذا (إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ) أى : ما تتبعون فيه إلا الظن فى فهم المشيئة واستلزامها للرضا وأمر التشريع ، وقد حكى عنهم ذلك فى سورة الأعراف بقوله : (وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) [28] .. ثم أسقطهم من مرتبة الظن إلى ما دونها ، فقال : (وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ) الخرص : الحزر والتخمين ، كتقدير الثمر فى شجره وما يبلغه بعد الجفاف ، فهو لا يستند إلى دليل ، وأطلق على الكذب لأنه لا يكاد يكون مطابقاً للواقع .. ثم قال لرسوله ملقناً له الحجة البالغة بعد إبطال حجتهم الداحضة : (قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : لو شاء أن يهديكم كلكم بمحض قدرته من غير أن يكون لكم إرادة ولا كسب ولا اختيار فى إيمان ولا عمل لهداكم بخلقه إياكم مهتدين بالفطرة .. ويراجع تحقيق هذه المسألة فى الجزء الثامن من تفسير المنار

ويقول بعد 150 آية : (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا) [151]

ويذكر فى مختتم السورة : (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) [161 ـ 164]

فأين تقطع الفكرة واقتضاب المعانى ؟!

أليست متسلسلة منتظمة آخذاً بعضها بعضد بعض ، تنتظمها وحدة الغرض واتحاد الموضوع ؟!

ولكن ذلك يدق إلا على ذى الفهم والحجى !

وكم من عائب قولاً صحيحاً .. .. وآفته من الفهم السقيم

لو أن أصحابنا هؤلاء يسألوننا ما خفى عليهم من علم ، لما بخلنا عليهم به ، ولبذلنا لهم من فضل الله علينا ، ولحميناهم من أن يكونوا ضحكة الضاحكين وسخرية الساخرين .

الحكمة فى خلو القسم المكى من التشريعات الجزئية
وعنايته بإثبات العقائد الأصلية والتشريعات الكلية

وأما خلو القسم المكى من التشريع التفصيلى ، ووجوده فى المدنى ، فهذا أمر طبيعى ، لأن الإسلام لم يكن قد تقرر فى مكة ، وكان المشركون ينازعون فى أصله ، وهو التوحيد والنبوة والمعاد ... الخ .. فحُقَّ أن يكون الحجاج فى ذلك ، وكذلك كان .. ولما كان بالمدينة وآمن به المدنيون ، وصاروا جماعة يقدرون أن يقيموا أحكامهم كأمة منظمة ، أتى بالقوانين والشرائع .

وهل كان يريد الناقد أن يفرض على كفار مكة أحكام المواريث * والزواج والطلاق وهم ينازعون فى أصل العقيدة وفى أنه رسول ولا يدينون له ؟

أفليس الواجب يقضى أن يثبت أصل الإيمان أولاً ، ثم يثبت بعد ذلك فروعه ؟!

وعبارة الناقد تفيد أن القسم المكى خلا خلواً تاماً من التشريع .. وليس كذلك ، بل هو فيه تشريع، ولكنه إجمالى ، ولم يَخلُ إلا من التشريع التفصيلى .

إثبات القصص والتاريخ فى القسم المكى

وأما القصص والتاريخ ، فليسا خاصين بالقسم المدنى كما يرى الناقد ، بل هما يوجدان كثيراً جداً فى القسم المكى .

هذه سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، والكهف ، ومريم ، وطه ، ويوسف ، والشعراء .. مكية .. وهى مفعمة بالقصص والتاريخ .

بل إنى لأزعم أن ما يوجد من ذلك فى المكى أكثر منه فى المدنى !

وهنا ينبغى أن أنبه القارئ أن الله ذكر ذلك للعظة والاعتبار .

أقسام القرآن

* إن قيل : إننا نوافقكم على أن الكفار لا يُخاطَبون بفروع الشريعة ، وإنما نقول : لماذا لم تُشرع هذه الأحكام للمؤمنين أنفسهم .. قلنا : إن بعضها لم يكن موافقاً لمصلحة المؤمنين كالمواريث ؛ لأن أكثر أقاربهم كانوا مشركين ، وأما الأصل العام فيها كلها ، فهو أن فائدة التشريع رهينة بالقدرة على التنفيذ ، وإنما يكونان بالسلطان والدولة

وقد عاب الناقد القسم المكى بأنه يقسم بالشمس والقمر والنجوم والفجر والضحى والعصر والليل والنهار والتين والزيتون ، وزعم أن هذا جدير بالبيئات الجاهلة الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً .*

وليس الأمر كما زعم ، فإن الله أقسم بهذه الأشياء ليبين لهم مكانتها ، وعِظَم نفعها ، ونعمة الله عليهم فيها ، فهى جليلة النفع ، عظيمة الخطر ، حتى استحقت أن يقسم الله بها .

ولعل الناقد قد توهم ذلك ، من القسم بالتين والزيتون ، فالتبس الأمر عليه ، ولبس على الناس ، وأوهمهم أن هذا قَسَمٌ بالمطعوم والمأكول ، وذلك شأن البيئات الجاهلة الساذجة .

ونحن نرى أن هذا قَسَمٌ بمنابت التين والزيتون ، وهى بعض بقاع الشام ، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ، ومولد عيسى ومنشؤه ، فالكلام على حذف مضاف ، أى ومنبت التين والزيتون .

وإنما قلنا ذلك ؛ ليتناسب مع ما بعده ، وهو طور سينين ، وهذا البلد الأمين ؛ لأن المراد بهما أيضاً بقاع ، فالطور هو المكان الذى نودى منه موسى ، والبلد الأمين : مكة ، وهى مكان البيت الذى هو هدى للعالمين ، ومولد نبينا ومبعثه .

وإنما أقسم الله بهذه الأشياء ؛ ليبين من شرف هذه البقاع المباركة ، التى انبثق منها نور النبوة والهدى على العالمين ، وإن لهذه الأماكن فى نفوس المؤمنين والمتدينين من يهود ونصارى منزلة لا تشابهها منزلة ، وإن ذِكرَها ليفعل فى نفوسهم ما يفعله ذكر الأوطان ، وملاعب الصبا ، ومعاهد الطفولة .

n

* القسم ضرب من ضروب التأكيد فى الكلام ، وللتأكيد فى الكلام صيغ وعبارات ودرجات هى من أدق أساليب البلاغة ، وقد كانت بيئة مكة أرقى فى البلاغة والفهم من بيئة المدينة وغيرها . وأقسام القرآن مما امتاز به على سائر الكلام العربى بما فيها من التناسب والملاءمة للمقسم عليه المقصود بالتأكيد ، سواء أكان يقدر فيها مضاف محذوف هو لفظ (رَب) كما يقول بعض المفسرين أم لا ، حتى أنها أفردت بالتأليف

تفنيد الطعن الرابع

هل تعلَّم القرآن من اليهود ؟

إن الذى دعا الناقد إلى هذا التورط والإسفاف : حبُّه لإثبات النتيجة الآتية : (أن محمداً تعلم من اليهود بالمدينة الحجة والمناقشة ، وأن القرآن من وضع محمد) .

وكيف يثبت له ذلك ، إذا كان القرآن منطقياً بمكة كما هو بالمدينة ؟ وإذا كان مقيماً للبرهان على الخصوم فى البلدين ؟ وإذا كان أمره فى الأدب والعلم والانسجام والقصد إلى غايات سامية وشريف ، سواء بمكة وبالمدينة ؟

فسلك تلك الطريق العوجاء الملتوية ، وزعم أن القرآن بمكة كان يهرب من المناقشة ، وكان خالياً من المنطق ... الخ ما قال ، أما بالمدينة فقد كان على الضد من ذلك ، وهذا من أثر تثقيف اليهود الذى ثقفوا به المهاجرين ، أى : ومنهم محمد .. ولكنه لن يصل إلى ذلك ما دامت يدنا تحمل القلم ، وما دام فى الناس عقول .

لقد بنى الدكتور هذه النتيجة على تلك المقدمات التى حاول فيها إثبات أن القرآن قسمان : قسم منه ضعيف وهو المكى ، وقسم منه قوى وهو المدنى ، وأن ذلك لا بد من تأثير البيئة اليهودية الراقية فيه.

وقد أفسدنا هذه المقدمات ، وأثبتنا أن القرآن فى القسم المكى منه قوى قوته فى المدنى ، وأنه يصدر — فى كل ما يصدر — عن علم واسع وقدرة عظيمة ، وهو فى أوله وأخره سواء سمواً وعظمة وارتفاعاً ، لم يكن يوماً ضعيفاً ولا خالياً من المنطق ، ولا هارباً من حجة ، ولا فاراً من مناقشة .

وقد كان هذا كافياً فى غرضنا ، لأنه هدْمٌ للأساس ، فينهدم ما شيَّده عليه .

ولكننا أردنا أن نأتى بدراسة موجزة للقرآن مع اليهود ؛ لنعلم أكان القرآن يحترمهم ، ويراهم مثلاً أعلى فى العلم والمنطق والدين والأخلاق ، حتى يقتبس منهم ويقلدهم ويعجب بثقافتهم ؟ أم هو يراهم ، وخاصة اليهود الذين كانوا يجاورونه ، مثلاً أدنى من أسوأ الأمثال فى العلم والخُلق والدين ، وينظر إليهم كما ينظر المعلم إلى تلاميذه الذين هم بحاجة إلى أن يتثقفوا منه ؟

إننا إن درسنا القرآن وجدناه ينظر إليهم النظرة الثانية ، فليس يعجبه منهم خُلق ولا علم ولا دين .

عيب القرآن اليهود بتحريف شريعتهم وكتمان العلم

كان يرى أنهم انغمسوا فى حمأة المادية ، وتمردوا على الروحية السامية ، وفَقَد الحقُ سلطانه على نفوسهم فبدلوه ، ولم تكن وجهتهم الخير والإصلاح ، وإنما كانت وجهتهم متاع الحياة الدنيا وزينتها ، فباعوا فى سبيل ذلك دينهم والحق الذى معهم ..

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [آل عمران 77]

(أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة 75]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [المائدة 41 ، 42]

عيب القرآن اليهود بفقد الأمانة واستحلال الخيانة والكذب على الله

كان يعيبهم أنهم فقدوا الأمانة ، وزعموا أن الله أحل لهم خيانة الأميين .. كذبوا ! .. فليس الله يحل الفحشاء والمنكر ..

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [آل عمران **75** ، **76**]

عيبه إياهم برذيلة الحسد

كان يعيبهم بخلق الحسد الذى هو أُسّ الرذائل ، وجُمَّاع القبائح ، والذى حملهم على أن يقولوا لعابدى الوثن : أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً .. والتوحيد دينهم ..

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا) [النساء **54**]

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً . أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا) [النساء **51**، **52**]

عيبه إياهم بالإشراك

عابهم أنهم غيروا دينهم ، فبعد أن كان دين توحيد أشركوا معه بعض المحدثات (وقالت اليهود عزير ابن الله) .. وبعد أن كان ديناً يحث على الفضيلة ، وينفر من الرذيلة ، ويعلم أنه لن تنفع الأحساب والأنساب ، وإنما تنفع الأعمال ، وأنه من أبطأ به علمه لم يسرع به نسبه ، استحال فى أيديهم ديناً يُغرى بالاتكال على الأنساب والأحساب ، وإذا وصل الدين على هذه المترلة فسد ، ولم يؤد مهمته السامية من الحض على الفضائل ، والتخويف من الرذائل ، بل ربما شجع على الرذيلة اتكالاً على الحسب والنسب ..

(وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـــئَتُهُ فَأُوْلَـــئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة 80 ، 81]

عيبه إياهم بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وخلال أخرى سيئة

وعابهم بأنهم تركوا التناهى عن المنكر ، والتآمر بالمعروف ..

وعابهم بأنهم كانوا يأكلون السحت ، ويقولون الإثم ..

وعابهم بأنهم لم يعرفوا جلال الله وكماله ، ولم ينزهوه عن النقص والعيوب ..

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء) [المائدة 64]

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) [المائدة 78 ، 79]

(وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّـــانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) [المائدة 62، 63]

وعابهم بأنهم قد أوتوا علماً لم يُعلِّموه ولم ينتفعوا به ..

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَـــاتِ اللَّـــهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الجمعة 5]

موقف القرآن من اليهود موقف المُعلِّم لا المتعلم

وهذا كله موقف من جاء ليُعلِّم لا ليتعلم ، ومن جاء يُثقِّف لا ليتثقف ، ولذلك كان يرى أنه حاكم ومهيمن علــى الكتب السالفة ..

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) [المائدة 48]

فليس القرآن من عمل محمد ، وليس لليهود فيه نصيب ، وإنما هو من المشكاة التى جاءت منها التوراة والإنجيــل ، فلما طال عليهما الأمد ، ونُسِيت تعاليمهما ، واستحالت إلى غير ما كانت عليه ، جاء بالقرآن ليردهم إلى الفهم الأول ، ويجدد لهم ما كان قد دَرَس من تعليم صحيح ، ويصل بهم إلى الغاية التى هى كمال النوع الإنسانى .

n

تفنيد الطعن الخامس

الحروف غير المفهومة المُفتَتَح بها بعض السور من القرآن والحكمة فيها

ادعى الناقد أخيراً أن الحروف المُفتَتَح بها بعض السور ربما قُصِد بها التعمية أو التهويل ، أو إظهار القرآن فى مظهــر عميق مخيف ، أو هى رموز وُضِعت لتميز بين المصاحف المختلفة ، ثم أحلقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً .

وهى دعوى قد كفانا هو إبطالها ! ..

لأنه يشك فيها ، ويردد بين أمرين متناقضين ، ثبوت أحدهما ينفى الآخر .. فكونها قُصِد بها التهويل وإظهار القرآن فى مظهــر عميــق مخيــف ، يقتــضى أنــه نطـــق بهـــا الرســول ، وأنهـــا كانــت فى عهده .. وكونها رموزاً وُضِعت لتميز بين المصاحف المختلفة ، ثم أحلقها مرور الزمن بالقرآن ، يقضى بأنه لم ينطــق بهـــا الرسول ، ولا كانت فى زمنه !

ونقض القرآن لا يكون بهذا الشك والاضطراب والترديد بين أمور متناقضة .

ولو علم الناقد أن الصحابة والتابعين كانوا يتشددون فى تجريد المصحف من كل ما ليس قرآناً ، حتى إنهم امتنعوا من العجم والشكل وكتابة أسماء السور ، لاستحيا من أن يقول مثل هذا القول !*

ولعمرى إذا كان شاكاً ومضطرباً ، فلِم لا يأتى إلا بما هو طعن فى القرآن ؟ ولِم لَم يذكر ـــ ولو على سبيل الشك والترديد ـــ ما قاله المفسرون من أنها أسماء للسور ، أو جيء بها هكذا مسرودة ليعلمهم أن القرآن منظوم من هذه الحروف التى ينظمون منها كلامهم ؟ فهو إذا من جنس ما ينطقون ، فليأتوا بمثله إن كانوا صادقين ، ذلك لأن مواده

* الصواب أنه علم ولم يستحِ ! .. وممن يستحى؟ وهل يتكلم فى مثل هذا المشكل من غير أن يراجع بعض التفاسير ؟ كلا ، إنه قد اتبع فى هذا بعض المستشرقين كعادته ، لأنهم أرقى فى نظره المظلم من علماء المسلمين ، بل ممن هو أعظم من الجميع ، ولكنه كان سيئ الاتباع ، فإن جرجيس سايل المستشرق الإنكليزى عرض لهذه المسألة فى مقاله عن الإسلام ، وذكر بعض أقوال المفسرين فيها ، ثم قال : وعندى أن لما فسرها به أحد علماء النصارى وجهاً ، لعله أدنى على الإصابة من تفسيرهم ، فقد حدس أنها أحرف وضعها كُتَّاب محمد برأس السورة اختصاراً من قولهم (أوعز إلى محمد) وذلك على حد ما وضعه بعض كتابه من اليهود (كهيعص) برأس سورة مريم اختصاراً من قوله بالعبرانية (كه يَعَص) أى هكذا أمر . ا.هـ.

وقد وضع مترجم الكتاب بالعربية حاشية لهذه الفرية المخروصة ، خلاصتها أن هؤلاء الكتاب للقرآن من غير المسلمين وضعوا هذه الأحرف لتبرئة أنفسهم من الإيمان بما كتبوه بأمر مستأجرهم للكتابة .

وأما طه حسين فقد نقحها ، بما ظن أن تكون مستساغة عند تلاميذه وأمثالهم الذين لا يصدقون أن كُتَّاب الوحى عند النبى عليه الصلاة والسلام كانوا من اليهود حتى فى مكة ! فجعلها لكُتَّاب المصاحف من الصحابة رضى الله عنهم ، جاهلاً أن هذه الأحرف كانت مقروءة ومحفوظة ومكتوبة فى سورها قبل كتابة المصاحف المتعددة فى خلافة عثمان ، وأن السور المكية منها ، كسورتى الروم ومريم ، نزلت فى أوائل البعثة قبل أن يكون فى الصحابة ابن عباس وابن عمر

ليست أعجمية ، بل هى من المواد التى ينظمون منها كلامهم ، وليست غريبة عنهم ، فإذا عجزوا بعد فليعلموا أنه ليس من كلام البشر ، بل هو من عند خالق القُوَى والقُدَر .

وأنَّى لهذا الناقد أن يقول خيراً فى الكتاب الكريم ، ولو على سبيل الشك ، وهو يريد نقضه وإبطاله؟

مَثَلُ الناقد وما يحاول من نقض القرآن ، كَمَثَلِ فرعون إذ قال : (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [غافر 38] .. ولم يَدْرِ أن دون ذلك بُعد ما بين الفناء والبقاء ، والمحدود وغير المحدود ، وتلك الهوة السحيقة التى فصلت بين ضعف الإنسانية وجبروت الربوبية ، وأخيراً دون ذلك سر الألوهية وعمق الأبدية .

لست أحمل من الموجدة لرجال التبشير ما أحمله لهذا الناقد ! .. لأنهم يبدون كما هم بلباسهم الكهنوتى ، ويظهرون آراءهم على أنها آراء تبشيرية ، أما هو فيخفى الإلحاد ويظهر بلباس العالم ، ويعرض أفكاره الإلحادية فى ثوب العلم ، ويظهرها كأنها آراء أنضجها البحث والتفكير ، وهى ليست من العلم فى قليل ولا كثير ، وإنما هى آراء تبشيرية لا أقل ولا أكثر .. وإذ أنهم لا يجرءون على دخول مدارس الدولة ، ولا الجامعة المصرية ، وهو يتربع على كرسى المعلم فى الجامعة ، فلا يقدرون على بث سمومهم ، وهو يقدر على بث سمومه ، وهم يخدمون دينهم بمهنتهم التبشيرية ، أما هو فيضر دينه ، وهم يخدمون أمتهم بعملهم ، وهو يضر أمته بتمزيق رابطتها الدينية ، وهى الرابطة التى كونتهم أمة وجعلتهم يتوادون ويتحابون ، ويرمون عن قوس واحدة ، وهم يخدمون أوطانهم ، وهو يضر وطنه بتفكيك روابطه ، وتمزيق وحدته ، فهو يخادع ، وهم لا يخادعون ، وهو يخون أمته ، وهم لأممهم لا يخونون ، وهم أوفياء لدينهم ، وهو عاق لدينه أثيم .

لست أخجل من شىء خجلى من الأقطار العربية ، ومن الأجيال المقبلة ، إذ يقولون : كيف يُدرس هذا الهذر وهذا الهذيان فى مصر فى الجامعة المصرية فى القرن العشرين ؟ أكانت بهذه المترلة من الجهل ؟ أكانت بهذه الحال من الانحطاط والغباء ؟ أفلم يكن فيها علماء يبينون لأمتهم ما فى هذا من جهل ؟ أفلم يكن فيهم من يقفون الناس على بُعد ما بين هذا والمنطق ؟ أفلم يكن فيهم قادة ومرشدون يحمون الأمة من هذه الغواية وهذا الحمق وهذا العقوق ؟

الآن .. اشهدى أيتها الأقطار العربية .. اشهدى أيتها الأجيال المقبلة .. اشهدى أيتها الأرض .. اشهدى أيتها السماء .. أن مصر لم تؤمن بهذه الشعوذة قط ، وأنها لم تَجُز عليها هذه الحماقات ، وأنها أعقل من أن تُخدَع ، وأعلم

من أن تدخل عليها هذه الشعوذة وتلك الأغاليط ، وأنها دفعت فى صدور هذه الشُبَه ، وبينت للناس بطلانها وما فيها من ضلال مبين .

n

القسم الثانى : عـــلاوة

ضراوة الناقد بالطعن فى القرآن

ليست هذه أول مرة يطعن فيها هذا الناقد فى القرآن الكريم ، فقد طعن فيه من قبل فى كتاب أسماه (فى الشعر الجاهلى) ، كذَّب فيه القرآنَ فى قصة إبراهيم وإسماعيل ، وزعم أنها خرافة اخترعها اليهود لغرض سياسى ، واستغلها القرآن لغرض سياسى . وزعم أن الدليل هو الذى اضطره إلى هذا .

وقد كنا كتبنا كلمة بينَّا فيها خطأه فى نظره وفى استنتاجه .. وكتبنا كلمة أخرى بينَّا فيها أن هذا الناقد قد سرق طعنه فى القرآن من كتاب (ذيل مقالة فى الإسلام) لأحد المبشرين * .. ونحن نثبتهما هنا ؛ ليعلم الناس أن القرآن برىء مما يقوله المبشرون وهذا المشايع لهم .

n

* بل أخذ من الأصل وهو للمستشرق الإنكليزى (سايل) مترجم القرآن ومن ذيله لكاتب شرقى مستأجر

المقال الأول

منهج الدكتور طه حسين العلمى فى البحث *

أظن أن الصحف لا تأبى علىّ نشر هذا النقد للشعر الجاهلى للدكتور طه حسين ، وأن ليس لأحد سبيل عليها إذا نشرته ؛ لأنه لا يتعلق بدينه ، ولا بإثبات كفره بما كتبه فى الشعر الجاهلى ، ولا بإثبات أنه طعن فى الدين الإسلامى الذى تُقام شعائره فى مصر ، فيكون مستحقاً للعقوبة المنصوص عليها فى القانون المصرى ، وإنما هو مناقشة هادئة علمية محضة فى المنهج الذى اصطنعه الدكتور فى البحث فى الشعر الجاهلى ، يتبين منها : أهذا المنهج الذى سلكه فى البحث علمى منطقى يرضى عنه العلم ؟ أم هو منهج خاطئ لا يحترمه العلم ويحتقره المنطق ويرى أنه من المغالطات ؟!

إننا سنحاول ذلك ، وستكون النتيجة كما سيراها القارئ ، أن منهج الدكتور فى البحث من ضلالات العقول ومغالطات الوهم ، وأنه ليس يسلك هذا المنهج إلا الذين لم يمارسوا صناعة المنطق ، ولم يمرنوا على صناعة البرهان ، وكانوا سطحيين فى بحوثهم لم يتعمقوا إلى الغور ، ولم يبعدوا المرمى .

وغرضنا من ذلك أمور ثلاثة :

أولها : أن تسقط دعوى الدكتور طه حسين بأن ما سلكه فى البحث منهج علمى حديث ، وأنه بذلك يحشر نفسه فى زمرة العلماء حشراً فى عداد المخترعين والمبتكرين والمستكشفين .. وليس يعلم إلا الله ما ينال هؤلاء العلماء من الأذى فى مضاجعهم بانتساب الدكتور إليهم وحشره نفسه قسراً فى زمرهم .

* نُشرت فى الجزء العاشر من المجلد السابع والعشرين من مجلة المنار سنة 1345هـ / 1927م

ثانياً : أن أحمى شباب مصر من عدوى ذلك المنهج ، ومن أن يتأثروا الدكتور فى طرائقه الفكرية، فـإن مـستوى البحث فى مصر لَمّا ينضج بعد ، وذيوع أمثال طرائق الدكتور مما يكون ضغثاً على إبالة .

ثالثها : أن يعلم الذين يدينون بالإسلام فى مصر أن دينهم لم يصادمه علم ولا عقل كما يدعى الدكتور ويفتـرى ، وحاشا الإسلام أن يصادمه علم أو عقل ، وأنه إذا كان ثَمَّ ما يصادمه فليس العلم والعقل ، وإنما هو الجهل المخـزى ، والباطل الشائن ، والعقل الفج الذى لم يستكمل بعد شرائط الإنتاج!!!

سيسوء ذلك الدكتور طه حسين ولا يرضيه ، ولكننى لست أتوخى رضاه ، ولا أتحرز من مساءته، وإنمـا أتـوخى رضى الحق ، وأتجنب مساءة الصواب ، فأما من عداهما فلا علىّ أن يكونوا غاضبين ، وليس يدخل فى غرضى أن يقتنع الدكتور طه حسين ، فإنه ليس ممن يُرجى منهم اقتناع ، فإنه ليس طالب حق ، وإنما هو طالب رواج ، وليس ممن يعنيهم الصواب ، وإنما ممن يعنيهم الربح ، فهو كالتاجر ، همه أن تروج بضاعته ، لا أن تُنقَد فيُعلم جيدها من رديئها ، وكمـا أن التاجر إذا بَصَّرته عيبَ بضاعته ناكرك وجاحدك ، كذلك الدكتور إذا ألمسته عيب ما يقول بيده جحد واسـتكبر ؛ لأن ذلك يقف دون رواجه وربحه ، وإياهما يريد .

إن الذى أفسد على الدكتور أمره : اعتقاده أن أمته أمية ، فهو يلقى إليها مباحثه على عواهنها ، لا يُعنى بتمحيصها ، ونفى الزائف عنها ، عالماً بأنه ليس عندها من ملكَة النقد ما يبين عيبه ويظهر شينه ، وقد مد له فى هذا الاعتقاد أنـه يرى المعجبين برأيه والمقرظين لعلمه مهما كان فيه من الباطل والخطأ .

ألا فليعلم الدكتور بعد ، أنه ليس ينشر بحوثه فى أمة وحشية متبدية كقبائل الزنوج ، وإنما هـو ينـشرها فى أمـة متحضرة متمدينة ، ضربت فى العلم بسهم ، وأخذت منه حظاً ، وأن بنى قومه فيهم من ينقدون الآراء ، ويعلمون حقها من باطلها ، ويعلمون المغالطات مهما بولغ فى تزيينها ، وأهم لم تستعص عليهم نحل الفلاسفة ومعتقـداهم فى الإلهيـات والأخلاق والسياسة والاجتماع ، فنقدوها ، وعلموا زائفها من خالصها ، فكيف تستعصى عليهم آراء سطحية تتعلـق بتاريخ أو شعر ؟ وإنهم إن كانوا قليلاً ففى استطاعة هؤلاء القليل أن يبينوا لجمهرة الأمة عثرات الرأى وكبوات الأفهام .

جاء شقيق عارضاً رمحه .. .. إن بنى عمك فيهم رماح

* * * * *

نفى الدكتور طه حسين فى الفصل الذى عنوانه (الشعر الجاهلى واللغة) وجودَ إبراهيم وإسماعيل، وبناءَهما الكعبة ، وهجرتَهما إلى مكة ، وتعلُّمَ إسماعيل العربية من العرب العاربة الذين هم من قحطان ، وإن كان قد ورد ذكرهما فى التوراة والقرآن .

نفى ذلك الدكتور ، وليس له اختيار فى هذا النفى ؛ لأنه مضطر أمام الدليل القطعى ، والدليل الذى اضطره إلى ذلك ، هو أنه قد ثبت أن لغة قحطان ، أى لغة جنوب جزيرة العرب ، تخالف اللغة العربية التى يتكلم بها أهل الحجاز ، فنسبتها إلى اللغة العربية كالنسبة بين اللغة العربية وبين أى لغة سامية ، فإذا كانت هذه القصة صحيحة ، وكان إسماعيل وبنوه قد تعلموا العربية من القحطانية ، فكيف بعد ما بين اللغة العربية العدنانية واللغة القحطانية ؟

نحن إذن بين أمرين : إما أن نقبل هذه القصة ونرفض ذلك الدليل القطعى ، أو العكس .

ولا مندوحة تُجوِّز رفض الدليل القطعى ، فلا بد من رفض هذه القصة وإنكارها والإذعان للدليل القطعى : ننكرها بجملتها .. فلم يوجد إبراهيم وإسماعيل ، فضلاً عن بنائهما الكعبة ، وهجرتهما إلى مكة ، وتعلُّم إسماعيل العربية من القحطانية ، نحن مضطرون إلى ذلك وإن حدثنا القرآن والتوراة عنهما ، فإن ورود هذين الاسمين فيهما لا يكفى لوجودهما التاريخى .

هذا دليل الدكتور ، وسنبدأ فى مناقشته .

قبل الدخول فى تفصيلات المناقشة ، نذكر مقدمة ينبغى أن تُعلَم : وهى أن القرآن لم يعرض لحديث تعلُّم إسماعيل العربية من قحطان ، وإنما الذى عرض له وجودهما وهجرتهما وبناؤهما الكعبة ، وإنما الذى عرض لتعليم إسماعيل العربية من القحطانية هم مؤرخو اللغة .

وبعد .. فسنسلم للدكتور ــ جدلاً ــ كل ما قاله ، من البعد بين القحطانية والعدنانية بعداً يجعلهما لغتين مستقلتين ، ومن أنه لو تعلم إسماعيل من القحطانية لكانت اللغتان متفقتين أو متقاربتين .

ولكننا نقول له : إن دليلك لا ينفى إلا أن إسماعيل تعلم اللغة العربية من القحطانيين ، فأما وجودهما ، وهجرتهما إلى مكة ، وبناؤهما الكعبة ، وهى الأمور التى عرض لها القرآن ، فلا ينفيها ، ولا يتعرض لها .

فمما يتفق مع دليلك أن يكون إبراهيم وإسماعيل قد وُجِدا وهاجرا إلى مكة ، وبنيا الكعبة ، وتعلَّمَ إسماعيل وأبناؤه العربية من غير القحطانيين ، من العرب الذين خلقهم الله يتكلمون العربية الحجازية ، التى بقيت إلى مجيء الإسلام .

فالدليل القطعى لا ينفى إلا شيئاً واحداً ، وهو تعلُّم إسماعيل وبنيه العربية من القحطانية ، فمن الواجب أن يقتصر به على ذلك ، ولا يعدى إلى القصة جميعها فينفيها ؛ إذ لا منافاة بينه وبين بقيتها .

ومثل الدكتور فى ذلك ، مثل من يسمع مؤرخَين : أحدهما يقول : إن اللورد كتشنر كان عميد الدولة البريطانية فى مصر . والآخر يقول : إنه كان عميدها فى مصر سنة 1920 . فيقول : إن التاريخ يفيد أن اللورد كتشنر غرق زمن الحرب العظمى التى انتهت قبل هذا التاريخ ، فما قاله المؤرخان كذب ، ولم يكن اللورد كتشنر عميداً لإنكلترا فى مصر وقتاً ما .

كذَّب المؤرخين ، وكذَّب القصة جميعها .. ولو اتبع المنطق لنفى كونه عميداً فى زمن سنة 1920، ولم يُعَدِّ النفى إلى كونه عميداً ، ولم يكذِّب المؤرخ الأول ، إذ لم يتعرض لتعيين الزمن .

وكذلك الأمر عندنا .. الدليل ينفى ما قاله المؤرخون ، من أن إسماعيل تعلم العربية من القحطانية، فينفى به الدكتور القصة حتى ما ذكره القرآن من وجودهما وهجرتهما وبنائهما الكعبة ، مما لم ينفه الدليل ولم يتعرض له ، ويكذِّب القرآن فيما قاله ، وهو لم يعرض لما نفاه الدليل ، وإنما عرض لغيره .

فيا دكتور : دليلك أقصر من دعواك ! .. أنت تدعى نفى وجودِ إبراهيم وإسماعيل ، وهجرتِهما إلى مكة ، وبنائِهما الكعبة ، وتعلُّمِ إسماعيل العربية من القحطانية .. ودليلك إنما ينفى الأخير ، وهو تعلُّم إسماعيل العربية من القحطانية ، فأما ما عدا ذلك فلا .

ويسمى علماء المناظرة ذلك بـ (منع التقريب) .. والتقريب : سوق الدليل على وجه يستلزم المطلوب .. ويقولون فى مثل ذلك : إن التقريب غير مُسَلَّم .. أى أنك سقت الدليل على وجه لا يستلزم المطلوب .

فمثلك مثل من ادعى أن هذا الشبح إنسان ، ويستدل على هذه الدعوى بأنه متحرك بالإرادة ، وكــل متحــرك بالإرادة حيوان .. نعم .. الدليل مسلَّم ، ولكنه لا يستلزم المطلوب ، وهو أنه إنسان .

فالمنطق يأمرنا إذا نفى الدليل شيئاً أن نقصره على ذلك الشىء ، ولا نعديه إلى ما عداه . وقد رأيت فى مثال اللورد كتشنر كيف نخطئ إذا عدينا النفى إلى غير ما قام عليه الدليل .

ولو أردنا أن نصوغ دليلك فى قالب منطقى لكان هكذا : لو كانت الحجازية أصلها القحطانية ، لما بَعُد ما بينــهما هــذا البعــد ، لكنــهما متباعــدان ، إذن فليــست الحجازيــة أصــلها القحطانيــة .. هــذه النتيجــة فقط .. ولكنك تزيــد فيهــا مــا يــأتى : لم يوجــد إبــراهيم وإسماعيــل ، ولم يبنيــا الكعبــة ، ولم يهــاجرا إلى مكة .. وهذا هوس ليس منطقاً !

ويظهر أن الدكتور طه علم أن دليله لا ينتج تكذيب القرآن فيما ذكره ، فلم يرتب التكذيب على الدليل ، ولم يقل (وإذن) التى يستعملها دائماً فى كلامه ، وقال : فواضح جداً لكل من له إلمام بالبحث التــاريخى عامــة ، ويــدرس الأساطير والأقاصيص خاصة ، أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة فى عصور متأخرة ، دعت إليهــا حاجــة دينيــة ، أو اقتصادية ، أو سياسية .

وهو بين شرَّين لا مفر منهما : إما أن يكون اجترأ على تكذيب القرآن فى وجود إبراهيم وإسماعيل بدون دليــل ، وليس بيده إلا قوله (فواضح جداً) ! .. وحينئذ تكون دعوى لا دليل عليها ، والدعاوى إن لم تقم عليها بينة لا يُعبَــأ بها .. وإما أن يكون قد كذَّب القرآن بذلك الدليل .. وقد علمنا أنه أقصر من دعواه ، ولا ينتج تكذيب القرآن .

هذا ، وقد رأى القراء أننا لم نناقش الدكتور على قاعدة أن القرآن نص يقينى ، وهو حجة على كل ما خالفه ، وإنما ناقشناه على قاعدة أنه نص تاريخى كنص أى مؤرخ من البشر تنزيلاً منا ، وبينا له أن دعواه لم تتم ؛ لأن الدليل العقلى الــــذى اســـتعمله لا ينــــهض ، فلــــم نُلزمـــــه بنـــــصوص الـــــدين لـــــئلا يقال : إن ذلك لا يلزمه إلا المتدين ، وإنما ألزمناه بالأدلة العقلية المشتركة للإنسانية كلها ، مَن تَديَّن منهم ومن لم يتدين .

ولا يظن ظان أن أدلة الدكتور الحديثة تقف عند هذا الحد من العبث والبطلان ، بل إن لها لوناً آخر من ألوان العبث والبطلان ، وهو ما سنبينه .

* * * * *

يزعم الدكتور طه أن قصة إبراهيم وإسماعيل موضوعة وضعها اليهود لغرض ، وهو أنهم كانوا يريدون أن يثبتوا القرابة بينهم وبين العرب ، ليعيشوا معهم عيشة راضية ، وقبلتها مكة لغرض سياسى ودينى ، لأنهم كانوا يريدون أن يتصل نسبهم بأصل من تلك الأصول الماجدة ، وقبلها الإسلام لغرض دينى ، وهو أنه يريد أن يثبت صلة بينه وبين اليهودية .

هكذا زعم الدكتور ، وليس معه نص تاريخى يفيد ذلك ، وليس بيده إلا أن ذلك يمكن أن يكون قد كان ، وإذا تُصُوِّر على هذا الحال كان منسجماً !

ونحن نقول له : يا دكتور ، إن التاريخ لا يثبت بمثل ذلك ، وليس كل ما يمكن أن يكون قد كان ، يجب أن يكون قد كان ، ولا يثبت الأمر بأن هذه العلة يجوز أن تكون له .

وإن مثلك فى ذلك مثل مؤرخ يأتى بعد مائتى سنة يقول : يزعم المؤرخون أن أمريكا اشتركت مع فرنسا فى حرب ألمانيا فى الميدان الغربى ، وهذا باطل ، فأين أمريكا من فرنسا ؟ إن بينهما المحيط الأطلانطيقى على سعته ، القصة مكذوبة ، وقد اخترعها بعض الأمريكان ، ليقرب الشعبين الأمريكى والفرنسى بعضهما من بعض ، إن هذه القصة تفيد أنهما حاربا معا جنباً لجنب عدواً مشتركاً ، فهى تدعو إلى تآلف الشعبين ، فقد وُضِعت لذلك .

وإن الذى يدعو على أن توضع علوم الأوائل كلها موضع الشك ، ولا يثبت إلا ما قام العلم على إثباته ، لا يسوغ له أن يطلب منا الاقتناع بمثل هذه الظنون والأوهام ، وليس عنده من الحجة ، إلا أن ذلك يمكن أن يكون قد كان ، فيجب أن يكون قد كان .. اللهم إلا إذا كان يدعو إلى رفض تقليد الماضين إلى تقليده هو !

وإن قارئى كتابه يحتاجون إلى مقدار عظيم من البلاهة والغمارة ، حتى يقتنعوا بأمثال تلك الحجج التى هى كما قال الأول :

حجج تهافت كالزجاج تخالها .. .. حقــاً وكــل كاســـر مكســـور

إذا أراد الدكتور أن يقنع الأمة بكتابه ، فعليه أولاً أن يبدأ بإلغاء عقولها ، وعكس منطقها السليم ، وإحالـة تلـك العقول عن فطرتها حتى تكون على غرار عقله ، ثم يلقى إليها بعد أمثال تلك الأوهام ، وحينئذ تقنع بها وتصدق ، ويتم له ما يريد .. ولكن .. دون ذلك وينفق !

ألا لا يقولن الدكتور بعد اليوم : المنهج العلمى الحديث ، ولا البرهان العلمى ، ولا يتمسحن بأعتاب العلماء ، فقد أطلعنا القراء على قيمة نهجه العلمى الحديث ومنطقه الجديد ، فعلموا أن ذلك ليس منطق العقلاء ، وإنما هو منطق البُله والأغمار والممرورين .

* * * * *

وبعد .. فكتاب الشعر الجاهلى ، إن كان ألفه مؤلفه كتاباً فى المغالطات ، وأمثلة على القياس الـذى لم يسـتكمل شروط الإنتاج ، والأضرب العقيمة ، والحجة الخداج ، فهو كتاب جيد فى بابه ، واف الغرض الذى قصد إليه ! .. وإن كان ألفه مؤلفه كتاباً فى تاريخ الشعر والأدب ، فليس من ذلك فى قليل ولا كثير .

ولو أن فى بلدنا مجمعاً علمياً منظماً ، لحكَّمته بينى وبين الدكتور ، ولرضيت حكمه فيما رميت به دعاوى الـدكتور من أنها دعاوى يقيم عليها أدلة أقصر منها تارة ، ويدعيها بدون برهان تارة ، ويثبت الشيء بأنه ممكن تـارة أخـرى ، ولكان من وراء ذلك التحكيم الخير العظيم ، فإنه إذا حكم علىّ تواريت خجلاً ، وأرحت الناس من سماع هذا النقـد وأمثاله ، وإذا حكم على الدكتور حمى شباب الأمة من التورط فى آرائه ، وحماها أيضاً من عدوى ذلك المنهج الخاطئ فى البحث .

أما والبلد ليس فيها مثل هذا المجمع ، فأدعو المشتغلين بالمنطق أن يبدوا آرائهم فيما بينى وبين الدكتور من خلاف ، إنهم إن فعلوا ذلك خدموا العلم والحقيقة ، ومن أولى من هؤلاء بخدمة العلم المظلوم والحقيقة المهيضة .

n

المقال الثانى

طه حسين يسرق طعونه فى القرآن من كتب المبشرين

" إنى أسفت لنَقْلِ الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب إلى وزارة المعارف ؛ لأن هذا الأستاذ لا يُستَطاع ــ فيما أعلم ــ أن يُعوَض ، الآن على الأقل ، لا فى الدروس التى يلقيها على الطلبة ، ولا فى محاضراته العامة للجمهور ، ولا من جهة هذه البيئة العلمية التى خلقها حوله ، وبَثَّ فيها روح البحث الأدبى ، وهَدَى إلى طرائقه "

هذا ما يقوله أحمد بك لطفى السيد ، مدير الجامعة ، فى استقالته . وهذا ما يقوله فى حديثه مع مندوب الأهرام . وبمثل هذا يلهج بعض الكتاب فى هذه الأيام .

ونحن نرى أن الادعاء بأن الدكتور (لا يُستَطاع أن يُعوَض) مبالغة فى ثناء ، اعتاد الدكتور ومدير الجامعة أن يتقارضاه !

وأما دعوى أنه خلق بيئة علمية ، بث فيها روح البحث الأدبى ، وهدى إلى طرائقه ، فنحن لا نستطيع أن نسلم بذلك ؛ لأن الدكتور فاقد لروح البحث ، ولا يدرى ما طرائقه ، وفاقد الشىء لا يبثه ويهدى إليه ، ونُجوِّز أن يُوصَف الدكتور بكل شىء ، إلا البحث ومعرفة طرائقه .

وهذه مسألة يخالفنا فيها مدير الجامعة وبعض الكتاب ، ونريد أن نقيم الدليل عليها ، ونقنع بها من يريد الاقتناع .

نريد أن نعرض عليهم نماذج من بحوث الدكتور ، ونبين لهم من أين أخذها ؟ وهل فهم حين أخذها؟ أم أخذها مخطئاً فوقع فى التناقض ، وكان أبعد الناس عن طرائق البحث السديد ؟

* * * * *

أكبر كتاب اشتهر به الدكتور كتاب (فى الشعر الجاهلى) ، وأشهر بحث فيه هو إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل ، وتكذيب القرآن والتوراة فى دعوى وجودهما ، وزعمه بأن قصة إبراهيم وإسماعيل وأبوتهما للعرب أسطورة لفقها يهود جزيرة العرب لغرض سياسى ، واستغلها القرآن لغرض دينى .

بحث جاء به فى كتابه ، وانتحله لنفسه .. أيدرى الناس ممن أخذ هذا البحث ؟ .. إنه أخذه من كتاب (ذيل مقالة فى الإسلام) لمن سمى نفسه بهاشم العربى ، وهذا الكتاب مطبوع ، قد طبع للمرة السادسة ، وهو من عمل بعض المبشرين الطاعنين فى الإسلام .

ونحن نعلم أن القارئ لا يكفيه أن يقال إنه أخذه من كذا وانتحله من فلان .. لذلك نريد أن ننقل له عبارة الأصل ، ورقم الصفحة ، وننقل له عبارة الدكتور ، فيؤمن معنا بأنها مسروقة .

يقول صاحب (ذيل مقالة فى الإسلام) فى صفحة **352** من كتاب (مقالة فى الإسلام) المطبوع بمطبعة النيل المسيحية للمرة السادسة :

" وحقيقة الأمر فى قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقها قدماء اليهود ، تزلفاً إليهم ، وتذرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس ، أو إلى تأسيس مملكة جديدة لهم فى بلاد العرب يلجئون إليها ، فقالوا لهم : نحن وأنتم أخوة وذرية أب واحد ..

" وهذا سَنن مألوف لليهود ، فإنهم متى رأوا المصلحة فى التودد إلى قوم قالوا لهم : أنت إخوتنا ونحن وأنتم صنوان . وقد حاولوا مرة أن يخدعوا اليونان بهذه الحيلة ، ليتعصبوا لهم ، فخابوا ..

" ثم استأنفوها مع العرب ، لما زحف عليهم تيطس بجيش الروم ليقمع عصيانهم ، فتذرعوا إليهم برحم القرابة ، وقالوا لهم : نحن وأنتم ذرية إبراهيم وعده الله ولن يخلف وعده ليقيمن من سلالتهم ملكاً على الأرض حتى الانقضاء ، وطمعوا أن يجروهم بذلك على قتال الروم فلم يظفروا بمرادهم ..

" ثم نكبوا فهاجر كثير منهم على جزيرة العرب ، وتوطد فيها أمرهم كما ذكر المصنف ، ولم يألوا جهداً إذ ذاك إلى ظهور الإسلام فى إشراب العرب أن بينهم وبينهم قرابة من النسب حتى نجحت فيهم هذه الأكذوبة آخر الأمر ، لأنهم كانوا أجهل من أن يردُّوها ، ولأن الوثنيين منهم لما رأوا اليهود والنصارى على ما بينهم من الاختلاف متفقين على تعظيم إبراهيم لم يشق عليهم أن يكونوا هم أيضاً فرعاً من هذا الأصل ، إذ كان سواء عليهم أن ينتموا إلى هذا الأب القديم أو إلى غيره ، أو لعلهم كانوا قبل ذلك يجهلون اسمه بتة ، فأقبلوا هم أيضاً يعظمونه ، وتناقلت ذريتهم أمر هذا النسب بينهم وبين ابنه إسماعيل ، الذى قالت لهم اليهود إنه جدهم ، حتى رسخت هذه القصة فى أذهانهم بتمادى الزمان ..

" فلما ظهر محمد رأى المصلحة فى إقرارها فأقرها ، وقال للعرب إنه إنما يدعوهم إلى ملة جدهم هذا الذى يعظمونه من غير أن يعرفوه ، إلا أن قدماء مؤرخيهم لم يتنبهوا لما تبطنه هذه الدسيسة من الخداع اليهودى فصدقوها وأثبتوها فى تواريخهم ، ثم تداولها الخلف عن السلف ، حتى صارت عندهم أخيراً من الحقائق التاريخية الراهنة التى لا يسع أحد إنكارها ..

" وأنت قد رأيت مع ذلك أن للكلام فى ردها مجالاً متسعاً ، لم يبق اليوم أحد من جهابذة العصر ومحققيه إلا ويجزم بأنها خرافة ، وبأن التصديق بها حماقة ، فإن أبى المسلمون بعدها إلا أن يكون نبيهم وأمته منتمين إلى ذلك المحتد الكريم فهم وما اختاروه لأنفسهم " .

فيتابعه صاحب كتاب (فى الشعر الجاهلى) ويقول فى ص 26 :

" والأمر لا يقف عند هذا الحد ، فواضح جداً لكل من له إلمام بالبحث التاريخى ، ويدرس الأساطير والأقاصيص خاصة ، أن هذه النظرية متكلفة ، مصطنعة فى عصور متأخرة ، دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية . للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا

يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلاً عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكـــة ونـــشأة العرب المستعربة " .

يقول صاحب الذيل :

" وحقيقة الأمر فى قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقتها قدماء اليهود للعرب تزلفاً إليهم " .

فيأبى ذلك الحاكى المقلد إلا أن يقول مثله ، فيقول فى كتاب (فى الشعر الجاهلى) :

" ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعاً من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهـــة ، وبـــين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون شمال البلاد العربية ، ويبنون فيه المستعمرات ، فنحن نعلم أن حروباً عنيفة شـــبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد ، وانتهت إلى شىء من الملاينة والمـــسالمة ، ونوع من المحالفة والمهادنة ، فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذى استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التى تجعل العرب واليهود أبناء أعمام " .

ويقول صاحب الذيل :

" ولما ظهر محمد رأى المصلحة فى إقرار القصة فأقرها ، وقال للعرب إنه إنما يدعوهم إلى ملة جـــدهم هـــذا الـــذى يعظمونه من غير أن يعرفوه " .

فيأبى ذلك الصدى إلا أن يقول مثله أيضاً ، فيقول فى صحيفة 27 :

" ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين ديانة النـــصارى وديانـــة اليهود ، فما الذى يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود " .

لم يدع ذلك المقلد فكرة من أفكار صاحب الذيل فى هذه المسألة إلا انتحلها حتى قوله : " إن الوثنيين قبلــوا هــذه الفكرة لأنهم رأوا اليهود والنصارى متفقين على تعظيم هذا الأصل " .

فيقول فى كتاب الشعر الجاهلى :

" وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة فى القرن السابع للمسيح " فمن المعقول جداً أن تبحث هذه المدنية الجديدة لنفسها عن أصل تاريخى قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التى تتحدث عنها الأساطير .

ثم قال فى ص 29 من (الشعر الجاهلى) :

" أمر هذه القصة إذن واضح ، فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب دينى ، وقبلتــها مكة لسبب دينى وسياسى أيضاً ، وإذن فيستطيع التاريخ الأدبى واللغوى ألا يَحْفَل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى " .

لقد بان الآن أن الدكتور سرق بحثه هذا من صاحب (ذيل مقالة فى الإسلام) ، وإنما حكمنا بهذا لأن كتاب (ذيل مقالة فى الإسلام) أقدم من كتاب (فى الشعر الجاهلى) ، فإنه طبع للمرة السادسة فى سنة 1925 . *

وليته حين سرق ، فهم ما يسرق ، وأداه على وجهه ! .. ولو فعل لكان محتاطاً لنفسه كصاحب الأصل من الغلــط الفاحش والنقض البين .

* وأقدم طبعة رأيناها له سنة 1891

يجعل صاحبُ الذيلِ التوراةَ هى الأصل ، ويعرض عليها القرآن ، فإن خالفها طعن فيه .. أما الدكتور فيكذِّب بالتوراة والقرآن جميعاً ، فلا يكون بيديه شبه دليل إلا قوله (كل من له علم بالأقاصيص يعلم) ، ونستطيع أن نقول : وهذه دعاوى مجردة !

ويؤمن صاحب الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ، ويكذب أبوة إسماعيل للعرب ، فيأتى المقلد ، فلا يفهم عنه هذا ، فيكذب بوجود إبراهيم وإسماعيل فضلاً عن أبوتهما للعرب ، ويرى أن تلك حيلة اخترعها اليهود .

كان صاحب الذيل فطناً محترساً ، وكان حاكيه قليل الفطنة ، وقليل الاحتراس ، فاصطدم بالنقض الآتى :

إن التوراة قد انتشرت فى البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها فى جزيرة العرب ، وكان فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل ، فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهرانى العرب حيلة منهم للتقرب إليهم .

ولنتنازل عن ذلك ، ونسلم جدلاً أنها نشأت بعد نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها .. فيبقى أنه لو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوها حيلة ، فما هو السر فى أن كان ذكر إبراهيم وإسماعيل فى جميع نسخ التوراة التى فى البلدان المختلفة ؟ .. أكان يهود يثرب هم كل يهود العالم ؟ أم كان يهود يثرب لهم السلطة على جميع يهود العالم ، فأى زيادة يزيدونها فى التوراة عندما حكموا على جميع اليهود أن يزيدوها فى نسخهم ؟

إنه ليس هذا ولا ذاك .. وما أتى ذلك كله إلا من هذه الدعوى .

أما صاحب (ذيل مقالة فى الإسلام) صاحب الفكرة الأصلية ، فقد كان ــ مع سخفه ــ أفطن لهذه الاعتراضات التى ذكرناها من حاكيه المقلد ، فصدَّق بوجود إبراهيم وإسماعيل ، وكذَّب بأبوتهما للعرب فقط ، وزعم أنها حيلة اخترعها اليهود ، وهو حين يذهب إلى هذا يكون أفطن من حاكيه ، ولا يَرِد عليه ما يَرِد على الدكتور .

فقد بان من هذا أن الدكتور قد سرق بحثه من كتاب سخيف ، ولم يفهمه على وجهه ، فوقع فى التناقض الذى فطن له الأصل فاحترس من أن يقع فيه .. ثم بعد هذا يقال (الدكتور يبث البحث الأدبى ويعلم طرائقه) ؟!

إن الدكتور ليس كذلك إلا فى بلد قليل الاطلاع ، وفى بلد يُعَد الجهل فيه علماً ، وهذيان المريض بحثاً ، ومـــصادمة المنطقة طرائق التفكير والبحث !!!

(الدكتور لا يُستَطاع أن يُعوَض) ؟!

إن مما يخجلنا أمام الأجيال المقبلة وأمام جاراتنا أن يكون هذا المغتصب المتهافت المجانب للمنطق، رائجاً فى مصر ، لا تعلم الأمة زيفه ولا التواء تفكيره ، ويقول رئيس جامعتها إنه لا يُعوَض !

إننا لم نشأ أن نلقى القول دون دليل وبرهان ، بل سقنا الدليل عليه ، وأثبتناه بالوقائع الملموسة ، وبينا للناس أرقام الصفحات ، وأريناهم على ضوء البحث قيمة بحاثتهم ، فعسى أن يكفوا عن ذكر البحث الأدبى ، وطرائق البحث ، وما إلى ذلك .

وإن أبوا إلا أن ينعتوه بما ينعتونه به ، فنحن نعلن إلى الناس جميعاً أننا لا نرى فى هذا البحاثة إلا مُغيراً ، يسرق أكفان الموتى المهلهلة البالية ، فيزيدها هلهلة وبِلى ، يلبسها ويخرج بها على الناس .. فأما الذين أوتوا العلم فيـــشمون منـــها أكفان الموتى ، ويرون فيها صديدهم وتراب القبر ، ويعلمون ما فيها من درن وبِلى .. وأما أنصار الدكتور فيحـــسبونها أثواباً جديدة من نسج يده ، ويعدونه بعد ذلك صناع اليد ، ماهراً فى البحث والتنقيب .

n

المقال الثالث

السياسة الإلحادية فى التعليم

يتنازع الناس فى مصر سياستان فى التعليم : إحداهما دينية ، والأخرى لا دينية . أما الأولى ، فهادئة لينة ، تمشى على بطء وكسل . وأما الثانية ، فمرحة نشيطة جادة عاملة ، يُخَاف منها وتُتَّقَى ، لا تَترك فرصة لهدم الدين إلا افترصتها ، ولا باباً للتشكيك فيه إلا اقتحمته ، وهذه السياسة يمثلها الدكتور طه حسين ومن لف لفَّه ممن يؤيدون سياسته .

وإنى أريد أن أناقش هذه السياسة الحساب ، وأفندها ، وأبين عواقبها الوخيمة ، وأضرارها السيئة على العباد والبلاد ، وقبل ذلك لا بد من أن أبين أن للدكتور ومن يؤيده هذه السياسة الإلحادية .

* * * * *

نستطيع ، إذا صح استقراؤنا لأعمال طه ، واستنتاجنا منها ، أن نحكم على سياسته التعليمية بأنها كانت سياسة واسعة النطاق ، ذات عناصر كثيرة ، وأهم عناصرها أنها كانت سياسة لا دينية .

وليس هذا التعبير طبقاً للمعنى كما يجب ، إذ يَحتمل ذلك أنها كانت سياسة لا تناصر الدين ولا تخذله ، ونحن نريد أنها سياسة كانت تُعادى الدين وتحاربه ، وتسعى فى إزالة سلطانه على القلوب ، فلنسمها إذن سياسة هدم العقائد الدينية ، ولكى ننصفه ، ونحمل القارئ على الاطمئنان إلى هذا الحكم ، نقدم للقارئ عناصر هذا الحكم ، فإن اطمأن إليها فذاك ، وإلا فهو فى حل من أن يرى رأياً غير هذا الرأى .

إنك حين تقرأ ما يكتبه الدكتور فى الجرائد مما له مساس بالدين ، تحس من سطوره الإلحاد ، والدعاية إليه ، فتجده مثلاً قد كتب فى السياسة الأسبوعية عدد 99 : " ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية ، وما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين ، فالدين حين يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم ، فالعالم الحقيقى ينظر الآن إلى الدين كما ينظر إلى اللغة ، وكما ينظر إلى الفقه ، وكما ينظر إلى اللغات ، من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة .... وإذن نصل إلى أن الدين فى نظر العلم لم ينزل من السماء ، ولم يهبط به الوحى ، وإنما خرج من الأرض ، كما خرجت الجماعة نفسها " ا.هـ.

وكتب مرة يقول : إن الذين يُئَوِّلون نصوص الكتب السماوية ليوفقوا بينها وبين العلم ينافقون الدين والعلم معاً ، ويرى أنه يجب أن يؤمن بالعلم ويؤمن بالدين وإن تناقضا ، ويجمع بين النقيضين فى الإيمان .

وهذا رأى أخطر شيء على الدين ؛ لأن تأويل الدين ليتفق مع العلم هو مادة بقاء الأديان ، وإذا نزع منها ذلك جمدت واستعصت على البقاء .

وما يدعو إليه من الإيمان بالعلم والدين معاً فيما يتناقضان فيه لا يخفى ما فيه من الخداع ؛ لأنه من المعلوم حتى للأطفال أنه لا يمكن التصديق بالنقيضين ، فلا يمكن الإيمان بأن البحر الأبيض ملح وليس ملحاً ، من شخص واحد فى وقت واحد ، وقد عرف النقيضان بأنهما لا يمكن اجتماعهما فى الصدق والكذب .

وما أن اقتعد الدكتور كرسى الجامعة المصرية حتى أخذ يهدم فى الدين بكل وسيلة ، ونحن نكتفى هنا بالآراء التى طبعها .

أخرج الدكتور كتابه (فى الشعر الجاهلى) فكذب فيه القرآن ، ورماه بأنه يستغل الأساطير لغرض دينى ، فقد قال فيه فى ص 26 : للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى .

وذكر فيه أن قصة إبراهيم وإسماعيل أسطورة نشأت فى عهد قريب من الإسلام اخترعها اليهود لغرض سياسى ، وقبلتها قريش ، واستغلها الإسلام لغرض سياسى ودينى معاً ، وقد نقل ذلك عن (ذيل مقالة فى الإسلام) لمبشر شديد التعصب ، كما بينا ذلك فى بعض ما كتبناه .

والمقصود هنا أن نبين أن الدكتور فى دروسه لتلامذته بالجامعة ، كان يبث فيها الإلحاد ، ويكذب بأخبار القرآن ، ويصفه باستغلال الأساطير ، ويأخذ أقوال المبشرين التى ما كان يحلم أصحابها بأن تدخل أحط المكاتب ، فيزجها فى الجامعة المصرية فى ثوب النقد الأدبى ، ويقوض تحت سلطان النقد أعز معتقدات الأمة عليها .

فإن قيل : قد زعم رئيس الجامعة / أحمد لطفى بك السيد ، أن هذه المسألة لم يدرسها للتلاميذ ، فكيف تزعم أنه كان يدرسها لهم ؟ .. قلنا : إن للطفى السيد أن يقول ، ولنا رأينا فيما يقول .. إن الدكتور قد ذكر فى أول كتابه (فى

الشعر الجاهلى) أنه أذاعه على تلاميذه ، وليس سراً ما تحدث به إلى مائتين من التلاميذ ، فلسنا نترك قول المؤلف نفسه فى حالة ليس فيها دواع إلى الكذب ، ونأخذ بقول لطفى السيد فى حالة الدفاع عن صاحب الكتاب .*

على أنه قد كتبه وأذاعه على الطلاب وعلى غير الطلاب ، وذلك أكثر ذيوعاً له مما يتحدث به فى حجرات الدروس .

وقد خطب الدكتور طه حسين فى حفلة أقامها طلبة كلية الآداب بتاريخ 6 شهر 4 سنة 1932 خطبة نـشرت فى أهرام 7 أبريل سنة 1932 جاء فيها : أرجو أن يكون بيننا عهد ، كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم ، ألا نؤمن إلا بالعلم .

إذن ، فالدكتور طه حسين ذو سياسة غرضها هدم العقائد الدينية .

أظن أن هذا يكفى لأن يستنتج ما ذهبت إليه من أن سياسة الدكتور وأشياعه التعليمية هدم الدين ، فلنـضع هـذه النتيجة ، ونناقشه ومن يذهب مذهبه فى هذه السياسة .

ليس يكفى أن نقول هذه سياسته ، بل لا بد من نقدها ومناقشتها .

ولسنا نناقشها من جهة أن الدين حق ، ومن الباطل إبطال الحق ، لئلا ندخل فى مجادلات دينية ليس هـذا محلـها ، وإنما نناقشهم ونتحاكم معهم إلى مصلحة المجموع وقواعد الاجتماع ، ونبين أى السياستين أدعى إلى تقـدم العمـران وأيهما أدعى إلى تقويضه ؟ ونبين آراء الفلاسفة فى هذه المسألة من مؤمنين وملحدين .

* * * * *

* أى وهو أستاذه ، وقد لقبه بابنه البكر !

إذا نظرنا إلى الدين فى مجتمعنا وجدناه رابطة بين الأفراد كرابطة اللحم والدم ، جمع بين الأمة ووحدها ، وجعلها كتلة متماسكة ، تشعر بشعور واحد ، وتسعى لمصلحتها ، وتدفع عن وجودها .

وهو فوق ذلك أس الأخلاق عندها ، كما هو أس الأخلاق عند الأمم الأخرى ، بنيت أخلاقها ومدنيتها وحضارتها عليه ، فمن يسعى فى هدم دينها فإنما يسعى فى تقويض أخلاقها ، وتفكيك عراها، وحل وحدتها ، وما بقاء الأمم إلا بهذين .

الدين فى النفوس هو ذلك الضمير الحى الذى يبعث الشخص إلى أن يضحى بنفسه لمصالح المجتمع ، هو ذلك الضمير الذى يحض على الفضائل الأخلاقية الاجتماعية ، وينهى عن الرذائل التى تفسد المجتمع ، وتهد من قوته .

إن هؤلاء الذين ينشرون الإلحاد فى الأمة قوم قد تعلموا تعليماً ناقصاً ، فلا وقفوا مع العامة ، ولا تغلغلوا فى أعماق العلم حتى كانوا مع الخاصة ، ولو فعلوا لعرفوا للدين قيمته الاجتماعية ، وعلموا أنه ضرورى للمجتمع ، ولأيقنوا أن الخدمة التى يؤديها للأمم لا يغنى غناءه فيها غيره ، لا من جهة ما يعطيه من أسس للأخلاق ، ولا من جهة ما يزرعه من المحبة والألفة والتراحم والإحسان بين المجتمع الواحد ، ولا من جهة ما يُشرِب النفوس إياه من حب العدل والعفة والمثل الأعلى ، ولا من جهة ما يغرسه من الأمل الذى يجعل الحياة راضية سعيدة ، ويعين على مصائبها وبلاياها وشرورها .

إن أصحاب هذه السياسة لم ينظروا إلى المسالة بحذافيرها ، وإن كل الفلاسفة الذين هم جديرون بهذا الاسم يرون للدين هذه المنزلة ، وسأنقل لك رأى الفيلسوف ابن رشد مُلخِّص كتب أرسطو ، وأعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ، وفيما أنقله ما يُعلِمَك موقف الفلاسفة المتقدمين من الدين .

قال ابن رشد فى ص 129 من كتابه (تهافت التهافت) :

" أما ما نسبه أبو حامد * من الاعتراض على معجزة إبراهيم عليه السلام، فشىء لم تقله إلا الزنادقة من أهل الإسلام ، فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع ، وفاعل ذلك عندهم محتاج

* أى نسبه إلى الفلاسفة

إلى الأدب الشديد ، ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم بمبادئ الشريعة وأن يقلد فيه ، ولا بد من هذا الوضع لها ، فإن جَحْدَها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان من حيث الفضيلة ، ولذلك وجب قتل الزنادقة ، فالذى يجب أن يقال : إن مبادئها هى أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، فلا بد أن يُعترَف بها مع جهل أسبابها ، ولذلك لا تجد أحداً من القدماء تكلم فى المعجزات مع انتشارها وظهورها فى العالم ؛ لأنها مبادئ تثبيت الشرائع ، والشرائع مبادئ الفضائل ، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم فعرض له تأويل فى مبدأ من مبادئها ، فيجب عليه ألا يصرح بذلك التأويل ، وأن يقول فيه كما قال تعالى : (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) [آل عمران 7] هذه حدود الشرائع وحدود العلماء " ا.هـ.

انظروا ، أيها الداعون إلى تقويض الدين ، إلى تلك الكلمة الذهبية : " إن جحد مبادئ الشريعة والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان من حيث الفضيلة " .. انظروا إليه كيف يقول إن الحكماء من الفلاسفة لا يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع .

وقال أرنست رينان فى كتابه (تاريخ الأديان) :

" من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية " ا.هـ.

وليس احترام الدين مقصوراً على الفلاسفة المتدينين ، بل إن الفلاسفة الجاحدين الذين لا يدينون بدين يحترمون الدين ، ويعرفون له فضله فى إنهاض الأمم ، وتشييد الحضارات ..

هذا جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسى يقول فى كتابه (سر تطور الأمم) :

" فإن قيل : إنها طيف لا حقيقة له ، قلنا : طيف وجب احترامه ، فبفضله عرف آباؤنا حلاوة الأمل، وانطلقوا وراء تلك الأوهام انطلاق الشجاع أصابته جِنة ، فأنقذونا من الهمجية الأولى ، وأوصلونا إلى ما نحن فيه الآن ، كذلك كانت الأوهام أشد عوامل الحضارة تأثيراً ".

ويقول فى ذلك الكتاب أيضاً : " وعلى الفلاسفة الذين يقتلون الأدهار فى هدم ما بناه المؤمنون فى يوم واحـــد ، أن يخروا لهم ساجدين ! فإنهم حلقة من سلسلة تلك القوى الخفية المهيمنة على الكائنات ، ولقد جاءوا بأعظم الحوادث التى خلدت فى بطون التاريخ " .

هؤلاء هم العلماء الذين أدركوا حقائق الكون ، وأصول الاجتماع ، ووجهوا علمهم إلى ما يفيد الإنسانية ، لا إلى ما يفسدها ويقوض أركانها .

لقد ضعف الدين فى نفوسنا معشر المصريين ؛ بسبب إهماله فى مدارس الحكومة ، وبما يوجه إليه من طعون فى المجلات والصحف ، فضعف فينا كل شىء ..

ضعفت عاطفة الإحسان ، فليس منا ــ إلا قليلاً ــ من يحسن إلى البائسين ، ويُنفِّس عن المكروبين ، ويَهَــب مالــه للمصالح العامة ..

ضعف فينا سلطان العقل على النفس ، وعلى الشهوات ، فضاعت أموالنا فى سبيل شهواتنا ولذائذنا ، وأدى ذلك إلى فقرنا المدقع ..

ضعفت فينا ــ إلا قليلاً منا ــ حاسة الشعوب بالواجب ، وطهارة الذمة ، والعفة عن أموال الآخرين ..

ضعفت فينا أخلاق الشمم والعزة والعدل ..

فماذا تريدون أيها الناصرون للسياسة اللادينية فى المدارس بعد ذلك ؟!

إن الأمة قد أشفت ، ولم يبق منها إلا الذماء ، فأشفقوا على البقية الباقية من أخلاقها .

إنها قد أصبحت لحماً على وضم ، فأنهضوها من كبوتها ، بدل أن تجهزوا عليها .

حنانيكم ! .. بعض الشر أهون من بعض !

أعلم أنكم تقولون : حقائق العلم والنقد الأدبى ، وما دام العلم يعارض الدين فنحن نضحى بالدين لأجل العلم .

ولكننى أقول لكم : إن الدين لا يتعارض مع حقائق العلم العملية ، كحقائق الكهرباء والبخار ، فمهما استكشف العلماء من حقيقة تقرب المواصلات ، وتسهل المخاطبات ، وتخفف آلام الإنسانية ، وتدنى من سعادتها ، فلن تخالف الدين . إنما يخالف الدين تلك الآراء التافهة الفجة التى تدعونها تاريخاً أدبياً ، واصطلحتم ــ خطأ ــ على تسميتها علماً .

خذوا مثلاً كتاب (الشعر الجاهلى) ، ووازنوا بين ما تكسبون وما تخسرون .. إنكم تكسبون أن شيئاً كثيراً مما نسميه شعراً جاهلياً ليس شعراً جاهلياً .. وتخسرون ضياع الدين من نفوس الناشئة ، وانهيار الأخلاق بانهياره .

هبوكم كسبتم أن الشعر الجاهلى لم يوجد ، وأن مجنون ليلى شخص خيالى اخترعه الرواة .. أكنتم بذلك تسامون أمم أوربا فى حقائق العلوم الطبيعية والكيمياء ؟ أكنتم بذلك أقدر على استنبات الأرض واستغلال أسرار الكون ومعرفة طرقة الاقتصاد ؟ أكنتم بذلك مخففين ويلات الإنسانية مستكشفين طرقاً لنعمتها ورفاهيتها ؟

لتهنأ الإنسانية منذ اليوم ! فقد خفت ويلاتها وشرورها .. ويا أيها الركبان الغادون الرائحون فى الآفاق : زفوا البشرى إلى كل من لقيتم من أبناء آدم وحواء .. ولِم لا ؟! .. ألم يستكشف طه حسين أن الشعر الجاهلى لم يوجد منه إلا القليل ؟ ألم تكن هذه الحقيقة خيراً مما استكشف علماء أوربا من حقائق البخار التى سيرت القاطرات فى البر والبحر ، ومن حقائق الكهرباء التى أنارت الحالك من الدجنة ، ومن قوانين الصوت التى نقلت الأصوات من قارة إلى قارة فى الزمن اليسير ؟

صدقونى أنها حقيقة ثمينة ومفيدة جداً ، وقد ضحى المستكشف لها بالدين ! .. ألا ترون صاحبها فخوراً بها ؟ يتحدى وزارة المعارف بها ويُدِّل عليها ، ويقول إن معدتها لا تهضمها !

لا تهزلوا يا قوم .. وجِدُّوا لحظة من الزمان .. لا تسرفوا فى الضحك على ذقون أمتكم ولحاهم ، وتقولوا : العلم والبحث .. وتغروها بذلك ، وتسرفوا فى هذا الغرور وهذا الخداع .

" حمار جارنا قد مات ، وأتانه قد ولدت " ..

" مجنون ليلى لم يوجد ، والشعر الجاهلى الذى بأيدينا ليس كله شعراً جاهلياً " ..

كلاهما علمه لا ينفع فى الحياة ، وجهله لا يضر ، ولا يقدم الأمة فى حياتها الاقتصادية ولا فى أخلاقها شيئاً .

إن سياسة هدم الدين التى سلكها بعض أساتذة الجامعة جعلت الحكومة المصرية متناقضة أو عابثة، تبنى بيد ، وتهدم ما بنته باليد الأخرى ، فبينا هى تُعلى من شأن الدين ، وتقوى فيه فى المعاهد العلمية الدينية ، وفى مدارسها الأولية والابتدائية ، وتنفق على ذلك النفقات الكثيرة ، إذا هى تنقض الدين من أساسه فى الجامعة ، وتنفق على ذلك النفقات الكثيرة أيضاً .

تبنى وتهدم ما تبنى ، وتنفق وتسخو فى الإنفاق على هذا البناء وعلى هذا الهدم .

فيكون مثلها كرجل يبنى قصراً ويشيده ، ويستأجر المهندسين والعمال على تشييده ، ويستأجر الهدامين على هدم ما بنى الأولون ، ويبقى كذلك فى بناء وهدم .

إحدى اثنتين : إما أن تؤمن الحكومة بصلاحية الدين وضرورته وإما أن تؤمن بنقيض ذلك . فإن كانت الأولى فعليها أن تصونه من عبث العابثين ، وإن كانت الثانية فعليها ألا تتعب نفسها فى تشييده وتوثيق قواعده .

ولذلك نطلب من الحكومة بإلحاح أن تعلن إلى الجامعة وغير الجامعة أن سياستها فى التعليم ليست إلحادية ، فلا تبيح الدعوة فى المدارس إلى نبذ الدين ، ونرى لذلك أن تكون ذات اتصال وثيق بالجامعة فى هذه النقطة ، لئلا يقع مثل هذا التناقض أو العبث الذى أشرنا إليه .

ليست دولة من الدول تعلم الإلحاد فى مدارسها إلا دولة السوفيت ، وهذه لا تزال تحت التجربة ، فهل نريد أن نحاكيها ؟ وإذا كان لا بد من المحاكاة فَثَمَّت الدول العظمى ، كبريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، فلنحاكها .

لا تَسُر هذه الحركة الإلحادية فى الجامعة المصرية إلا المبشرين ، وإنى أرى أنه يجب على جماعات المبشرين والــدول التى تساعدها ، لغاية كان لهم فيها فى القديم بعض العذر ، أن يغيروا سياستهم الآن ضد الدين .. أرى ذلك ، وأدعــو إليه ؛ لأن الزمن قد تغير ، ولم يبق النزاع بين مسيحية وإسلام فقط ، بل دخل خصم ثالث ، هو عدو للأديان جميعهــا ، وهو الإلحاد ، فمن يخرج من الإسلام يتلقفه الإلحاد ، فليس من مصلحة الأختين الشقيقتين : المسيحية والديانة الإسلامية أن تقفا متخاصمتين ، فتضعف قواهما ، ويستفيد من ذلك العدو الألد المشترك الراصد بالباب ، يستفيد من ضــعفهما كلتيهما .

بل من مصلحتهما أن تتركا النزاع مؤقتاً ، وتتعاقدا معاً على دفع هذا العدو المغير الذى يرى رجال التبشير فتكــه الذريع بالدين والمتدينين .

وأما أنه يجب على الدول ذلك ، فلأن الدين حجاز بين المسلمين وبين البولشفية ، فكلما ضعف الدين ضعف ذلك الحجاز بينهم وبين البولشفية الممقوتة التى هى عدو مشترك لكل الدول الآن .

لقد ناهضت أوربا الدين حقبة من الزمن لغاية سياسية ، وهى أنها أرادت أن تتخلص من سلطة رجال الدين الــذين افتأتوا عليها ، ولكنها لما أدركت غرضها كفت عن مناهضة الدين ، والآن لما رأت أن الأخلاق تتــدهور ، والإباحــة تتسلط على الجماهير ، وخافت سوء العاقبة ، عادت إلى تقويته ، وهرع الناس إلى ساحة الدين ، يلتمسون العون منــه على النجاة من هذا التدهور والانحطاط .

فهل آن لنا بعد هذا البيان أن نعلم أن مناهضة الدين خرق ، وأنه ضار بوحدتنا وبأخلاقنا أبلغ الضرر وأشده ؟

هل آن لنا أن نتعاهد على نصر الدين وتقويته فى نفوس الأمة ، لنقوى وحدتنا وأخلاقنا وروح الخير فينا ، ونــدرك من تقوية الدين ما أدركه آباؤنا الأولون ، ودول أوربة المستنيرة الآن ؟

إنه لا يزال عندى شىء من حسن الظن ، ولا تزال عندى بقية من أمل .. وفق الله المسلمين إلى مــا فيــه خيرهــم ونفعهم .

n

المقال الرابع

القـــــرآن الكـــــريم

(الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) [البقرة 2،1]

(الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) [هود 1]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليكم بكتاب الله ، فإن فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحُكم ما بينكم ، من يدعه من جبار قصمه الله ، ومن يبتغِ الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وأمره الحكيم ، وهـــو الـــصراط المـــستقيم ، هـــو الـــذى لمـــا سمعـــه الجـــن لم يتنـــاءوا أن قالوا : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ) هو الذى لا تختلف به الألسنة ، ولا يَخلَق على كثـرة الـرد ، ولا تنقضى عجائبه " .

وبعد .. فلست أثنى على القرآن الكريم إلا بما يشهد به التاريخ ، وتثنى به عليه الأجيال ، ولست أنحله من الفضائل إلا ما يقوم الدليل عليه .

إن هذا الكتاب الكريم قبس من نور الله ، ونفحة من نفحاته ، وسر من أسراره ، لم تظفر بمثله أمة مـــن الأمـــم إلا الأمة الإسلامية ، ولم تأت به نحلة من النحل إلا الديانة المحمدية .

هذا الكتاب ليس مثله كتب الأخلاق التى وضعها الفلاســفة المتقــدمون ، كجمهوريــة أفلاطــون ، وأخــلاق أرسطوطاليس ، وكتاب السياسة له ، ولا كتب الأخلاق التى وضعها فلاسفة الغرب ، وليس مثله أيضاً كتب الديانات

السالفة ، كالإنجيل والتوراة والزبور ؛ لأن كل أولئك لم تؤثر فى أممها أثره فى أمته ، ولم تفعل فى شعوبها فعله فى شعبه وفى سائر الشعوب التى دانت له .

لعمرى أين منه الإكسير الذى يبحث عنه الفلاسفة وعلماء الكيمياء ! .. إن قصارى هذا الإكسير أن يحيل النحاس ذهباً ، أما القرآن فهو يحيل النفس الإنسانية الخبيثة إلى نفس طاهرة علوية ، وليس يفعل ذلك فى فرد بل فى شعوب وأمم ، ويبدل من الجهل علماً ، ومن الرذيلة فضيلة ، ويجعل الشعب الذى لا يصلح للاجتماع ، ولا لأن يعيش أفراده بعضهم مع بعض شعباً اجتماعياً من خير الشعوب الاجتماعية ، وينصبهم على الدنيا سادة ومعلمين ومهذبين وساسة عادلين ، وليس يفعل ذلك فى الزمن الطويل ، وعلى الطريق المعروف الطبيعى ، بل هو يفعله فى الزمن القصير المدى ، الذى لا يكفى لتهذيب فرد ، بله أمة بأسرها ، فمثله فى ذلك مثل ما يتخيله علماء الكيمياء من فعل إكسير الذهب الذى يحيل النحاس إلى ذهب وشيكاً سريعاً ، وهو لا يستحيل إلى ذهب بفعل الطبيعة إلا فى آلاف السنين ، وهو مدفون تحت الأرض تصهره حرارة قوية فى باطنها .

وآية ذلك أن العرب كانوا قوماً متوحشين فى جزيرتهم ، يأكل بعضهم بعضاً كالوحوش الكاسرة ، والذئاب الجائعة ، كانت الحرب تقوم بين القبيلة والقبيلة ، فتمكث عشرات السنين حتى تُبيد القبيلتين ، وكان لا يأمن الرجل أن يسير فى طرق الجزيرة إلا بحلف أو جوار أو فى شهر حرام ، حتى كأن الجزيرة أتون من نار يأكل من فيه ، ولا يصلح للقرار عليه ، وكان العرب مع ذلك على أخلاق فظة ، وعادات قبيحة ، فكانوا يئدون البنات ، ويهتكون الحرمات ، ويعبدون الأصنام ، وتستعبدهم الأوهام ، وتملكهم الخرافات .

فأرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك الكتاب الكريم (مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) فنقض طباعهم الوثيقة ، وأبطل عاداتهم المحكمة ، وصهر نفوسهم ، فأزال خبثها ورذائلها ، وعادت نفوساً كريمة ، لا تعلق بها رذيلة ، ولا تشوبها فاحشة ، وأرسل هؤلاء البدو الجفاة على العالم القديم المتعفن البالى يُعلِّمونه ويُهذِّبونه ويُثقِّفونه ويَحكُمونه ، فيُقِيمون عدل الله فى أرضه ، وقسطاسه فى خلقه ، هذه معجزة اجتماعية لم يشهد مثلها التاريخ .

إن المرء قد يُعجِزه أن يُهذِّب ابنه ، وهو حريص على ذلك مشتغل به مقصور عليه ، وربما أعجز بعض فلاسفة الأخلاق والاجتماع أن يصلح أسرته ، وأن يسوس بيته ، فتنشز عليه زوجه ، ويشذ عنه ولده ، وتأبى عليه أخلاق ورثوها أن تلين فى يده ، وعادات اكتسبوها أن تستحيل كما يريد .

أما محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد قام فى الدنيا وحيداً فريداً ، الناس كلهم فريق، وهـــو وحـــده فريق ، لا ناصر ينصره ، ولا ولىّ فى الأرض يؤيده ، وليس بيده من أسباب القوة والغلب والسيطرة والسلطان شىء ، ولم يكن بيده إلا آيات من ذلك الكتاب ، تنزل من السماء مفرقة ، ويرسلها الله منجمة .

ما هذه الآيات ؟ .. ما هذه السور ؟ .. أى قوة تجثم وراءها ؟ .. وأى قدرة تستتر خلفها ؟ .. وأى سر من أسرار الكون تحمله فى ضميرها ؟

إنها تحمل أعظم قوة فى الوجود حتى كأنها القدر ! .. وتشتمل على سر خفى لا يعلم من أمره إلا أنه فوق القُــوَى والقُدَر ، فما أرادت من الوجود شيئاً إلا كان كلمح البصر ، قالت للطباع الوحشية النافرة : حولى ! .. فحالــت !.. وللقلوب المتحجرة : لينى ! .. فلانت ! .. وللرذائل النفسية : زولى ! .. فزالت ! .. ولهذا المجتمع البدوى الذى كـــان شراً كله ، كن خيراً كلك ! .. فكان !

كانوا قوماً متعادين متباغضين ، فزالت العداوة والبغضاء ، وكانت قلوبهم مختلفة ، وأهواؤهم متنافرة ، فألف الله بين هذه القلوب ، وجمع هذه الأهواء (لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـــكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْـــنَهُمْ إِنَّـــهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال 63]

كانوا قوماً يعدو بعضهم على بعض ، فأصبحوا يدفعون العدوان عن العالم .

وكانوا قوماً من شذاذ الإنسانية ، فأصبحوا قادة ، وكان لا يستفيد منهم الوجود إلا شراً ، فأصبحوا أجدى الناس فائدة ، وكانوا أعداء لأنفسهم وللإنسانية ، فأصبحوا أحب الناس للناس ، وأرأف الأمم بالأمم ، وأعدل الشعوب بين الشعوب ، وكل ذلك فى عمر قصير ، وزمن وجيز ، يقصر عن أن تُراض فيه نفس واحدة .

كان (رستم) إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول : أكل عمر كبدى .. يعلم الكلاب الآداب !

ليأكل الغيظ كبدك ما شاء ! .. ولتمحقك الضغينة محقاً ! .. قد قضى الله ، ولا راد لما قضى ، أن يتعلم هؤلاء الآداب والسياسة والاجتماع والفضائل والأخلاق والعلوم والفنون ، وأذن أن تقلب طباعهم، وتحول أخلاقهم ، ويكونوا سادة الدنيا وزينة الأرض وجمال العالم ، بما أحكم لهم من أسباب ، وما أنزل إليهم من آيات الكتاب .

هكذا فعل القرآن فى القديم ، وهكذا يفعل فى الحديث لو عنى الناس به اليوم كما عنى به أسلافهم بالأمس ، ولو عكفوا على درسه والبحث فيه ، واستخراج العبر منه ، ولو تخلقوا بأخلاقه ، وتربوا على آدابه ، واستيقنوا بيقينه ، ومكنوا لإيمانه حتى يستولى على نفوسهم ، فلا تنبعث الجوارح إلا على مقتضى هذا الإيمان .

لو كان هذا الكتاب عند أمة غيرنا لجعلوه وِرْدَ الناسك ، ولوحة المتعبد ، وكتاب المتشرع ، وصحيفة الأخلاقى ، وقانون الاجتماعى ، وآداب السياسى ، ونموذج البيانى ، ولكان كل شىء عندهم فيستولون به على كل شىء .

ولكنه مُنِى بنا ! .. فلم نعرف له قدره كما يجب ، ولم نحفل به كما ينبغى ، والشىء لا يعطيك خيره إلا على قدر احتفالك به ، وإجلالك إياه ، ومعرفتك بقدره ، واستبصارك بخيره ..

أضاعونى وأى فتى أضاعوا .. .. ليوم كريهة وسداد ثغر

كان سلفنا الصالح يعلمون ما فى القرآن من خير ، وكانوا يرونه هادياً مرشداً إذا توفروا عليه ، ولذلك كان هجيراهم القراءة فيه والتدبر لمعانيه ، وكانوا يكرهون أن يشغلهم عنه شاغل حتى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخرج الحافظ عن قرظة بن كعب قال : لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر ، وقال : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم ، مكرمة لنا . قال : ومع ذلك ، فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جردوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قالوا : حدثنا . فقال : نهانا عمر .

قرأت الأمم الأخرى تاريخ القرآن ومبدأ الإسلام ، وعرفت للقرآن فضله فى إنهاض المسلمين ، وعَلِم علماء الاجتماع منهم ورجال السياسة ورجال التبشير أن المسلمين لو عادوا إلى الاستيقان به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه

وتحليل حلاله وتحريم حرامه لعاد إليهم مجدهم الأول ، فسلطوا عليه المبشرين وصنائع المبشرين لينالوا به ، وينفروا عنه ويرموه بكل كريهة ؛ ليبعد أبناء المسلمين عنه ، فيبعد عنهم الخير بقدر بعهدهم عنه .. هذا هو السر فيما تراه من حملات لا تنى على القرآن الكريم .

ألا قد بلغت .. اللهم فاشهد !

ألا قد دللت المسلمين على الثغرة التى ينحدر منها إليهم أعداؤهم ليتقوها .. اللهم فاشهد !

ألا قد دللتهم على سر عظمتهم ، وسبب مجدهم ؛ ليسلكوا السبيل إليه .. اللهم فاشهد !

ألا قد أزحت الستار عن أعدائهم ، فأريتهم إياهم وخناجرهم مغمدة فى صدورهم ، وأيديهم ملوثة بدمائهم وأفواههم فاغرة إليهم ، وأضراسهم وأنيابهم تنهش فى لحومهم وأكبادهم .. اللهم فاشهد !

ألا قد بلغت .. اللهم فاشهد !

n

القسم الثالث : تذييل

هذه فصول كنا كتبناها رداً على الناقد ، ونشرت فى الجرائد فى حينها ، ونحن نثبتها هنا ؛ ليعلم الناس قيمة بحوث الناقد ، وما فيها من مجانبة لأساليب المنطق والتفكير .

n

المقال الأول

((مجانبة بحوث طه حسين للمنطق والتفكير))

يطلع على الناس الدكتور طه حسين بين كل آونة وأخرى بطائفة من أفكاره ، فيرى الناس فيها خلاف ما يعرفونه ، وقد يرون فيها ما يخالف معتقداتهم ، ومصادمة وتكذيباً لما أتتهم به الكتب السماوية .

ولما كنا قد درسنا الدكتور طه فيما يعرض له من بحث ، ورأينا له طرائق فى البحث وخلالاً تجعل لنتائج أبحاثه قيمـــاً زهيدة ، أردنا أن ندل الناس على بعض هذه الخلال فيه ، ونستشهد لهم من أبحاثه بما يدل على ظهورها فيه ؛ ليقرأوا له كتبه ورسائله بتحفظ ويحلوها بحيث أنزلها الله .

للدكتور طه حسين فيما يعرض له من الأبحاث خلة الجرأة على الحق ، فهو يدفع فى صدره للشبهة تعن له ، والخاطر يهجس بفكره ، ولا يكلف نفسه أناة المتثبت ، ولا تبصر المنصف ، ولا استقصاء العدل ؛ لعله أن يكون قد ند عنه مـــا لو ظفر به لغير حكمه ، وخالف رأيه ، بل يطرح عن نفسه مئونة الاستقصاء ، وكلفة البحث ، ويستوطئ مركب العجز ، والعجز مركب وطىء ، فيخرج بحثه نيئاً لم تنضجه نار الروية ولا الأناة والتبصر .

أحاول أن أعرض على الناس نموذجاً من بحثه بارزة منه الجرأة على الحق ، والتهجم بدون علم، فأضع أيديهم منــه على ما ذكرنا فيلمسوه بأيديهم منه ، وأريهم إياه فيبصروه بأعينهم .

أحاول ذلك فى أبحاثه ، فأراه كثيراً لا يعوز الطالب ، ولا يعنت الباحث ، ولا يشق على من يريده ، ولكن أظهر أبحاثه فى ذلك ، وأجلاها ما كتبه فى جريدة السياسة بعدد 16 يناير سنة 1925 تحت عنوان (شعراؤنا ومترجم أرسطاليس) ، فلنمثل به .

* * * * *

قال الدكتور فى ذلك المقال : " علىّ أن أنتقل من هذا العيب إلى عيب آخر يشبهه ، وقد اشترك فيه شوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الكتاب أيضاً ، وهو أنهم لم يقرأوا كتاب الأخلاق ، ولم يقدروه قدره، ولم يفطنوا للغرض من تأليفه وترجمته ، فهم قد فُتنوا بلفظ الأخلاق ، وخيل إليهم أن أرسطاليس قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألفه ، وأن لطفى قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ترجمة ، ولعل الرجلين قد فكرا فى شىء من هذا ، ولكنى أستطيع أن أذكر للشعراء والكتاب أن الغرض الأول من تأليف الكتاب وترجمته علمى لا عملى ، وأن المؤلف والمترجم أرادا خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا فى الوعظ والإرشاد، وما أظن أن كتاب أرسطاليس فى الأخلاق يصلح مرجعاً للوعاظ والمرشدين ، وإنما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور فهمى حين يدرس علم الأخلاق لطلابه فى الجامعة وفى مدرسة الحقوق " .

وملخص ذلك أنه عاب الشعراء الثلاثة والكتاب معهم ، بأنهم فتنهم لفظ الأخلاق ، ففهموا منه أن كتاب أرسطو فى الأخلاق كتاب وضع لإصلاح الأخلاق وغرس الفضائل وقلع الرذائل من نفوس البشر ، ولم يعلموا أن الكتاب علمى وُضع لخدمة العلم والفلسفة ، لا عملى وُضِع لإصلاح الأخلاق ، وربما فكر الرجلان فى شىء من ذلك ، ولكنه يذكر أن الغرض من تأليفه وترجمته علمى لا عملى ، ومن ذلك أخذ أن من عرضوا للكتاب بالتقريظ لم يقرأوا الكتاب .

وقد ألح على ذلك المعنى فقال : " كلا يا حافظ ، لم تقرأ الكتاب ، ولم تتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، ولم ترَ المؤلف والمترجم ماثلين فى إطار ، وإنما تخيلتهما كذلك ، وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذى تذكره ، وأنا زعيم بأنك لن تحاول ولن تمارى فيما أقول ، فلو أنك قرأت الكتاب حقاً ، ورأيت الفيلسوفين فى هذا الإطار يفيض عليهما هذا النور ، لقلت فيهما كلاماً غير هذا .. وهل تريد أن تقنعنى بأن شاعراً مثلك مجيداً غنياً خصب الخيال ، يستطيع أن يفهم كتاباً ككتاب أرسطو ويتفهمه دون أن يوحى إلى الشعر آية من آيات البيان ، فى وصف هذا العقل الذى لم تعرف الإنسانية مثله بعد ؟ .. كلا ، أنت كشوقى لا تعرف أرسطاليس ، ولم تقرأ إلا ترجمة الأستاذ لطفى " .

ونحن الآن نؤكد للدكتور طه أن الكتاب وُضِع لإصلاح الأخلاق ، وأن الغرض الأول منه عملى لا علمى ، وننقل له من كتاب أرسطو نفسه ما هو نص فى ذلك .

قال أرسطو فى الباب الثانى من الكتاب الثانى من كتاب الأخلاق صفحة 229 :

" 1 ــ شىء لا يغرُب عن النظر ، وهو أن هذا المُؤَلَّف الأخلاقى ليس نظرياً محضاً ، كما قد يكون الشأن فى كثير سواه ، فليس لأجل العلم بما هى الفضيلة أن أوغلنا فى هذه الأبحاث ، بل من أجل أن نتعلم كيف نصير فضلاء وأخياراً ؛ لأنه إن لم يكن كذلك صارت هذه الدراسة عديمة الفائدة أصلاً ، فمن الضرورى إذن أن نعتبر كل ما يتعلق بالأفعال لنتعلم إتيانها لأنها هى صاحبة السلطان فى التصرف فى خلقنا وفى اكتساب ملكاتنا كما قدمنا آنفاً ".

وقال فى صفحة 366 فى الباب العاشر من الكتاب العاشر :

" 1 ــ إذا كنا قد حددنا قدر الكفاية فى هذه الرسوم والنظريات التى أتينا عليها نظريات الفضيلة والصداقة واللذة ، فهل تظننا الآن قد أتممنا كل مشروعنا أم هل أولى بنا أن نظن ، كما قلته أكثر من مرة ، أن فى الشئون العملية ليس الغرض الحقيقى هو التأمل والعلم نظرياً بالقواعد علماً تفصيلياً ، بل هو تطبيقها .

" 2 ــ ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفى أن يعلم ما هى ، بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها ، أو إيجاد وسيلة أخرى لتصيرنا فضلاء وأخياراً .

" 3 ــ لو كانت الخطب والكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخياراً لاستحقت كما يقول (تيوغنيس) أن يطلبها كل الناس ، وأن تشترى بأغلى الأثمان ، وما يكون على المرء إلا اقتناؤها ، ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادئ فى هذا الصدد هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات فى الخير ، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلة وفياً بعهدها " ا.هـ.

فأرسطوطاليس يعترف أن هذا المؤلَّف الأخلاقى ليس نظرياً محضاً ، وليس لأجل العلم بما هى الفضيلة أن أوغل فى هذه المباحث ، بل لأجل أن يتعلم هو والناس كيف يصيرون فضلاء ، ولو لم يكن الشأن كذلك لصارت هذه الدراسة عديمة الفائدة ، وجعل علم الأخلاق علماً آلياً عملياً ليس الغرض الحقيقى منه التأمل والعلم نظرياً بالقواعد ، وإنما هو تطبيقها ، فلا يكفى أن يعلم ما هى الفضيلة ، وإنما يلزم رياضة النفس على حيازتها .

فكيف تسنى للدكتور طه أن يصرخ فى وجوه الناس قائلاً : نحن نستطيع أن نؤكد للناس أن الغرض الأول من الكتاب علمى لا عملى ، وأن يخطئ الناس إذا لم يفهموا خطأه ؟

ها نحن أولاء بهذا النقد قد وقفنا القراء على رجل يعرض له الخاطر الخاطئ فيعتقده ، ولا يكلف نفسه مؤنة البحث ليعرف أحق هو أم باطل ، ثم يرمى به فى ظهور أهل الصواب ونحورهم مشنعاً عليهم إذا فهموا خلاف ما فهم .

وهذا النقد كما يرينا الدكتور طه على ما وصفناه ، يرينا رجلاً يستطيل على الناس بما ليس فيه ويوهمهم أنه حال من الشىء وهو منه عاطل .

ذلك أنه يؤخذ مما نقلناه عنه ، ومن قوله فى تلك الكلمة نفسها : " أريد أن أكون حراً ، فأنا معتذر إلى شعرائنا الثلاثة ، إذ لاحظت أنهم جميعاً قد عرضوا إلى ذكر أرسطوطاليس ومدحوه وهم يجهلونه ، ويجهلون آثاره وأرجو أن يصدقونى ــ وهم يصدقونى ــ إذا قلت إنهم يجهلون حتى كتاب الأخلاق الذى أنشأوا لأجله هذه القصائد ، وما أظن أن علمهم بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، وما أحسب أنهم جميعاً قرأوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها "

يؤخذ من ذلك إيماء أنه حينما قرظ كتاب الأخلاق لأرسطو قبل ذلك عرض لأرسطو وهو يعرفه ويعرف كتاب الأخلاق الذى من أجله عمل التقريظ ، وإلا كان واقعاً فى العيب الذى يعيب به الشعراء من تعرضهم لما لا يفهمون .

وأنا أزعم أنه عرض لأرسطو ولكتاب الأخلاق وهو يجهل أرسطو من كل نواحيه ، ولا أستثنى من ذلك شيئاً إلا ناحية هى أهون نواحى أرسطو وأسلسها ، تلك هى الناحية التاريخية ، فأنا أقر له بأنه يعلمه من حيث هو مؤرخ للنظام السياسى عند الأثينيين ، وبذلك ترجم له نظام الأثينيين ، أما ما عدا هذه الناحية الوطيئة الذلول من تلك النواحى الصعبة الجموح ، كعلمه من حيث هو منطقى يصف طرائق العقل البشرى فى التفكير ، ومن حيث إنه سياسى يعلم ما هى المبادئ التى تقوى الممالك أو تضعفها ، وما هى الأسباب فى أن بعض الممالك ذو حكومة صالحة ، والبعض الآخر ذو حكومة فاسدة؟ وما هى الأشياء التى يجب أن تكون لكل نوع من أنواع الحكومات ؟ ... الخ .. نقول : أما تلك النواحى فلا يعرفها ، ولا يعرف أرسطو من جهتها .

أما أنه يجهل كتاب الأخلاق الذى وضع التقريظ من أجله ، فدليله ما بيناه من خطته فى فهمه أن أرسطو لم يعلم كتابه لإصلاح الأخلاق ، وأن غرضه علمى لا عملى ، مع أن نصوص أرسطو فى نقيض ذلك مكررة فى غيرما موضع

من الكتاب ، وأنها ليست بالأمر الذى يخفى على من قرأ الكتاب ، فلو كان قد قرأه حقاً ـــ ولو قراءة سطحية ـــ لما وقع فى هذا الخطأ .

وأما أنه يجهل أرسطو من النواحى الأخرى ، فإنى أسوق له دليلاً كالذى ساقه لحافظ إبراهيم ، فأقول :

أتريدنى يا دكتور طه أن أفهم ، أن عالماً مثلك باللغتين اليونانية والعربية ، يعلم كنوز اليونان ـــ ومنهم أرسطو ـــ ودفائنهم من سياسة وأخلاق ومنطق وعلم طبيعى وإلهى ... الخ .. ثم يعف عن تلك الكنوز ، فلا يحمل إلى قومه منها جوهرة واحدة ، بل يترك ذلك كله ، ويأخذ خرزتين من خرزهم ، هما الشعر القصصى عند اليونان ، ونظام الاثينيين ؟! .. كلا .. لست أفهم ذلك .. وإنما أفهم أنك لم تعرف الجوهر فأهديت الخرز ، وأعوزك اللؤلؤ فعلقت بالأصداف ، وقصر باعك عن الشىء الجليل فرضيت بالحقير .

على أن الدكتور طه يكاد يعترف فى بعض مقالاته بما قلنا ، فقد ذكر فى نقده للعقاد أنه كان من أثقل الدراسات عليه فلسفة (كانت) وأنها من ذلك النوع الذى لا يفهم .

والحق أن فلسفة أرسطو وأمثاله تعجز عقلاً مثل عقل الدكتور طه ، فلذلك جاوزها إلى ما يستطيع من ترجمة القصص وتلخيصها ، وما إلى ذلك من ترجمة الشعراء ، والقول فى حياتهم ومماتهم وشعرهم وغزلهم ... الخ .

فإذا كان الدكتور يرمى الناس بدائه وينسل ، فيصم الناس بأنهم يعرضون للشىء وهم لا يعلمونه ، وهو الذى يفعل ذلك ، ويزهى على الناس بما ليس فيه .. فأى رجل يكون ؟؟؟

يهذه الجرأة على الحق ، وذلك التهجم على الناس ، وتلك الاستطالة عليهم بما لا يعلم ، وذلك الإيهام بأنه قتل الشىء علماً ـــ وهو لم يتذوق طعمه بطرف لسانه ، ولم يشم رائحته بأنفه ـــ وبذلك البحث السطحى ، وبذلك النظر الأهوج والرأى الأحمق ، يعالج الدكتور ما يعالجه من بحوث ، ليسفه الناس فى آرائهم تارة ، ويكذب الأديان فيما جاءت به تارة ، ويوسع الأوائل تكذيباً وتفنيداً تارة ثالثة .

ها أنذا قد قررت أن الدكتور أخطأ فى فهمه أن كتاب الأخلاق ليس الغرض منه إصلاح الأخلاق ، وأخطأ إذ لم يقرأ الكتاب ليحق هذا الفهم ، وأخطأ إذ رمى غيره بالخطأ ، وأخطأ لأنه رمى غيره بأنهم لم يقرأوا الكتاب .

وأقرر أنه هو الذى لم يقرأ الكتاب ، وأتحداه أن يتقصى عما رميته به ، وأتحدى معه تلاميذه ومن على شــاكلته فى الجامعة ، وقد صخخته فى غير لين ولا هوادة ؛ لأستثير حميته للدفاع عن نفسه ، وأستفزه للذود عن حياضــه ، فــإن لم يدفع عن نفسه بعد ذلك كله علمت أن العجز قد أخذ بمخنقه * وتمثلت بقول الشاعر :

فمــا بُقيا علىّ تركتمانى .. .. ولكن خفتما صرد النبال

n

المقال الثانى

القرن الثانى ليس عصر شك واستهتار

إلى الدكتور طه حسين

السلام عليكم ورحمة الله .. وبعد ..

* من دهائه أنه لا يرد على منتقديه ؛ حتى لا يشتهر ردهم الفاضح له

فإنى أخالفك فى ذلك الحكم الذى حكمت به على العصر الثانى ، من أنه عصر شك واستهتار .. أخالفك فى الحكم ، وفى طريقة استنتاجه جميعاً .

فهل لك أن تنصت إلىّ قليلاً ؟! .. فإن رأيت الحق فيما أقول رجعت إليه ، وإلا نبهتنى على ما فيه من خطأ فأرجع إليك ، فإن طِلْبَتى وطِلْبَتك الصواب ، والحق نريد .

ليس معنى الحكم على عصر بأنه عصر شك واستهتار أنه قد وُجد فيه الشك والاستهتار ، إذ لا يخلو من ذلك عصر من العصور ، وإنما المعنى أن الروح العامة فيه الشك والاستهتار ، وأن غالب أفراده الشاكون والمستهترون . ولا يقدح فى ذلك أن يوجد الموقنون والمحتشمون على سبيل القلة والندرة ، وكذلك الحكم على عصر بأنه عصر يقين واحتشام .

ولقد توصلت إلى حكمك العام على العصر الثانى باستقراء حال طائفة من الأدباء والشعراء والمترفين ، فرأيت فيهم الشاك والماجن ، فأخذت العصر بجريرة هؤلاء ، وحكمت بأن العصر عصر شك ومجون .

وإن تصفح طائفة ووجدانها على صفة لا يعطى منطقياً الحكم على عصرهم جميعاً بأن فيه هذه الصفة ، ولو كان ذلك الاستقراء القليل منتجاً لذلك الحكم العام لخرجنا بحكمين متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور .

فإننا إذا تتبعنا سيرة الفقهاء والمحدثين والزهاد فى ذلك العصر ، وجدناهم على مرتبة عظيمة من اليقين والورع والزهد والاحتشام .

ففيهم الحسن البصرى المتوفى سنة 110 ، وقد كان أفضل أهل زمانه علماً وزهداً وتقوى .. لما ولى عمر بن هبيرة الفزارى العراق ، وأضيفت إليه خراسان ، وذلك فى أيام يزيد بن عبد الملك ، استدعى الحسن البصرى ومحمد بن سيرين والشعبى ، وذلك فى سنة 103 ، فقال هم : إن يزيد خليفة الله ، استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولانى ما ترون ، فيكتب إلىّ بالأمر من أمره ، فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر ، فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبى قولاً فيه تقية ، فقال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله ، إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملَكاً فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة الدهر ، إلى ضيق القبر ، ثم لا ينجيك إلا عملك .. يا ابن هبيرة : إن

تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ومنهم عمرو بن عبيد المتوفى سنة 144 .. سئل الحسن عنه فقال للسائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه ، قال له المنصور يوماً : هل من حاجة ؟ قال : لا تبعث إلىّ حتى آتيك . قال : إذن لا تلقانى . قال : هى حاجتى . ومضى ، فأتبعه المنصور طرفه وقال : كلكم يمشى رويد ، كلكم يطلب صيد ، غير عمرو بن عبيد . ورثاه المنصور بقوله :

صلى الإله عليك من متوسد .. .. قبراً مررت به على مروان
قبراً تضمن مؤمـناً متحنفاً .. .. صدق الإله ودان بالعـرفان
لو أن الدهر أبقى صالحـاً .. .. أبقى لنا عـمراً أبا عثمـان

ولم يسمع بخليفة يرثى من دونه سواه .

ومنهم مالك بن أنس المتوفى سنة 179 ، وسيرته فى العلم والتقوى معروفة .. لدغته عقرب وهو يقـرأ الحـديث ، فاربد وجهه ، وتغير لونه ، واستمسك مخافة أن يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الشاعر فيه :

يذر الجـواب فما يراجع هيبة .. .. والسـائلون نواكـس الأذقـان
عز التقى وفضل سلطان النهى .. .. فهو المهـيب وليس ذا سلطان

ومنهم محمد بن إدريس الشافعى المتوفى سنة 204 ، وأبو حنيفة النعمان ، وأحمد بن حنبل ، ومالك بن دينار المتوفى سنة 131 ، وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة 181 ، وربيعة الرأى المتوفى سنة 136 ، ورابعة العدوية المتوفاة سنة 185 ، وابن سيرين ، والشعبى .. وكثير غيرهم .. وإنما سبيلنا أن نمثل ولا نستقصى .

وما منهم إلا من ملك نفسه ، وكان أنفع الناس للناس ، وسيرتهم فى العلم والزهد والتقوى يعرفها من عُنى بـدرس حياتهم ..

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم .. .. بعـد الممات جمـال الكـتب والسـير

فها نحن أولاء قد وجدنا طائفة عظيمة موقنين محتشمين ، والدليل الذى نتبعه أن الحكم على عصر يتبع الحكم علـى طائفة فيه ، فهو عصر يقين واحتشام ، وقد كان عصر شك واستهتار ، فقد خرجنا بحكمين متناقضين ، والتناقض باطل ، فما أدى إليه فهو باطل ، وهو الدليل .

والحق أن تتبع سيرة طائفة يعطى الحكم عليها فقط ، أما أنه ينقل الحكم إلى بقية الطوائف فلا .

فطائفة العلماء والفقهاء والمحدثين والزهاد موقنون محتشمون ، وطائفة الشعراء والأدباء فيهم شك واستهتار ، فـإذا أردنا أن نحكم على العصر فسبيلنا أن نتعرف : أطائفة الفقهاء والزهاد والمحدثين هم الذين كـانوا يمثلـون عـصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه ؟ أم طائفة الشعراء والمغنين ؟

نبحث فنجد أموراً ظاهرة فى ذلك العصر تخول لنا الحكم عليه :

أولاً : أن الناس فى ذلك العصر كانوا يبجلون أصحاب الفقه والحديث ويعظمونهم ، ولم يكن بين الرجل وبين الجاه والشرف إلا أن يكون من أصحاب الفقه أو الحديث .

عن أشعث بن شعبة قال : قدم هارون الرشيد الرقة ، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعـال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج الخشب ، فلما رأت الناس قالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم أهـل خراسان ، قدم الرقة ، يقال له عبد الله بن المبارك . فقالت : هذا والله الملك ، لا مُلك هارون الذى لا يجمع النـاس إلى بشُرَط وأعوان !

ولو لم يكن للدين فى نفوسهم المحل الأرفع لما نزل أصحابه منهم هذا المحل .

ثانياً : أن الدين كان شغل العلماء الشاغل فى ذلك العصر ، فقد عكف قوم على تخريج أحكام الفروع ، ومعرفـة الحلال والحرام ، واستنباط ذلك من الكتاب والسنة والقياس ، وهم الفقهاء .. وقوم على تعـرف أصـول الـدين ،

ومعرفة وجود الله وصفاته ، وإرسال الرسل ، وإمكان المعجزات ، وما إلى ذلك ، وهم المتكلمون .. وقوم على مواعظ الدين وآدابه وحكمه ، وما يحض عليه من مكارم الأخلاق ، وهم الزهاد والنساك .. وآخرون على الرحلة فى طلب الحديث والتزيد منه ، وهم المحدثون .. وغيرهم على فهم كتاب الله ، ومعرفة ناسخه ومنسوخه ، وهم المفسرون .

وما لقى الأدب والشعر وعلوم العربية حظاً إلا لأنهم كانوا يرون أنها تعين على فهم كتاب الله وسنة نبيه .

فبالجملة فلم تُخدَم علوم الدين فى عصر من عصور الإسلام كما خُدمَت فى ذلك العصر ، ففيه وُضعت أصول أغلب العلوم الإسلامية ، وأحكمت قواعدها ، وفرعت فروعها ، وهذا أثر من آثار اهتمام أهل العصر بالدين ، ويقينهم به ، لا من آثار الشك فيه .

ثالثاً : أن الناس كانوا يطلبون حقوقهم باسم الدين ، وكان الفلج لمن وجد فى الدين ما يدل له حتى الخلافة العظمى ، فقد كانت الدعوة للعباسيين باسم الدين ، ولما استتب لهم الأمر وأديل لهم من بنى أمية كانوا يذودون أبناء (على) بالدين ، قال مروان بن أبى حفصة :

أنى يكون وليس ذاك بكائن .. .. لبنى البنات وراثة الأعمام

ويجيبه الداعى إلى العلويين بقوله :

لم لا يكون ؟ وإن ذاك لكائن .. .. لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله .. .. والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللسهام وإنما .. .. صلى الطليق مخافة الصمصام

رابعاً : أن المهدى نهى بشاراً عن الغزل فى النساء ، وذكر ذلك مراراً ، كالأبيات الآتية :

بعثت إلىّ تسومنى .. .. برد الشباب وقد طويته
بالله رب محمد .. .. ما ان غدرت ولا نويته
إن الخليفة قد أبى .. .. وإذا أبى شيئاً أبيته

ونهى الأمين أبا نواس عن شرب الخمر ، وقد ذكر ذلك فى أبيات كثيرة منها :

أيها الرائحان باللوم لوما .. .. لا أذوق المــدام إلا شميما
نالـــنى بالمـــلام فيها إمام .. .. لا أرى لى خلافه مستقيما
كبر حظى وما أؤمل منها .. .. أن أراها وأن أشم النسيما
فكأنى بمـــا أزيـــن منهـــا .. .. قَعَـــدى * يزين التحكيمـــا

وهذا يدل على احتشام وحب لصيانة الآداب .

خامساً : أن الناس كانوا يغارون على دينهم ، وكانوا ينقمون على من يظنون فيه مخالفة ، ولو كانت دون الكفر .

يدل لذلك قول الشاعر فى ذلك العصر ، ولا يحضرنى الآن اسمه ، ولا الشطر التالى من البيت الأول :

هـــاج الفـــؤاد بلابـــل الصـــدر .. ..
إن بحـــت طل دمى وإن كتمـــت .. .. وقـــدت علـــى توقـــد الجـــمر
ممـــا جنـــاه علـــى أبي حســـن .. .. عمـــر وصـــاحـــبه أبـــو بكـــر

فهذا كان يخاف أن يطل دمه من إظهار عقيدته تلك ، وهى دون الكفر . *

* قَعَدى : بالتحريك ، نسبة إلى القعدة ، وهم طائفة من الخوارج ، قعدوا عن نصرة على كرم الله وجهه ، والتحكيم بينه وبين معاوية معروف

* ولكنها عقيدة السياسة والملك ، وهى أدعى إلى استباحة الدم من الكفر

وما نُقل عن أبى نواس وبشار من الزندقة والإلحاد ، فلعله مما كان يتحدث به أحدهم لخاصته ، ورواه الرواة بعد لكَلَفهم بالرواية .

سادساً : تقرأ فيما تقرأ أن هؤلاء الشعراء كانوا يرون أنفسهم غرباء بخلقهم من ذلك العصر ، وأنهم شذاذ منه ، وكانوا يسعون بما لديهم من قوة لمحو القالة عنهم .

اتفق بشار وحماد على الحج مع الحاج ليتحدث الناس بذلك ، فتنفى عنهم قالة السوء ، فلما خرجا بَعُدَت عليهما الشُّقَّة ، فمالا فى الطريق إلى مكان ، فعاودا لهوهما ، فلما قفل الحاج قفلاً معاً ، فهنأهما الناس بذلك الحج ، فغضب حماد من بشار يوماً فقال هذه الأبيات :

ألم ترنى وبشاراً حججنا .. .. وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبى سفر بعيد .. .. فمال بنا الطريق إلى زراره
فآب الناس قد حجوا وبروا .. .. وأُبْنا موقرين من الخسارة

كل ذلك يسوغ لنا الحكم بأن العصر الثانى عصر يقين واحتشام ، لا عصر شك واستهتار ، وأن السبب فى الحكم بغير هذا — على ما أظن ، أن القارئ للأغانى يخيل إليه من كثرة ما يذكر من مجون هؤلاء أنهم فى جو يسيل فسقاً ومجوناً وإلحاداً ، ولكن لو تذكر أن صاحبه إنما عُنِىَ بتاريخ طائفة فقط هم الشعراء والمغنون ، وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر ، لحمى نفسه من التورط فى ذلك الحكم *، وأن هناك عوامل خاصة جعلت كثيراً من الشعراء المستهترين ماجنين ، سنعرض لها فى مقال آخر ، وإن ذكرنا لها يفضى بنا إلى مأخذ آخر على الأستاذ الدكتور طه حسين .

* أى لأن مقتضى قواعد النقد التحليلى لأهل عصر من العصور أن يُبنَى على خلاصات كلية عامة لأمرائه وحكامه ، وعلمائه على اختلاف طبقاتهم من مفسرين ومحدثين وأصوليين وفقهاء ومتكلمين ، وعباده وصوفيته ، وأدبائه وفنانيه وشعرائه ، كما بينه الأستاذ الكاتب لهذا فى أوائل هذا المقال ، فخروج الدكتور طه عن هذه القاعدة التى يدعيها دليل على أنه قد كتب لإفساد الأخلاق ، لا لأجل تحقيق التاريخ .

(انتهى الكتاب)

n

كلمة ختامية فى هذا الكتاب وعلاوته وذيله

يقول محمد رشيد رضا ، صاحب دار المنار :

أرأيت لو كُلِّف أن يكتب تاريخ فرنسة فى هذا العصر الذى عرفها فيه بالإقامة فى عاصمتها عدد سنين ، وكانت هى التى حببت إليه هذا الضرب من البحث التحليلى لحياة الفساق والمجان الذين يوجد منهم فى تلك العاصمة ما لا يوجد مثله فى سائر عواصم الشعوب فى الكم ولا فى الكيف .. أرأيت لو اقتصر فيما يكتبه فيه على تهتك هذا الصنف وفجوره ، أكان يكون مؤرخاً صادقاً ، وناقداً مجدداً ، ومعلماً ناصحاً للأمة التى يكتب لها ؟ أم يعده كل عارف بحال فرنسا وعاصمتها من كذبة المؤرخين ، والكتاب المفسدين ، وهو إنما كتب ما خبره بنفسه ، وعرفه بسمعه وحسه ولمسه ، وأما ما كتبه عن القرن الثانى للهجرة ، فهو قليل من روايات خاصة تحتمل الصدق والكذب ، وقد يكون جانب الكذب فيها أرجح ، بخلاف روايات حفاظ الحديث ، وكذا رواة اللغة .. فتدبر !

جاءنى صديقى الأستاذ العالم الأديب ، الكاتب الخطيب ، المؤلف بما كتبه فى نقض مطاعن الدكتور طه حسين الأخيرة على القرآن العظيم ، ورغب إلىّ فى طبعه بمطبعة دار المنار ، والعناية بتصحيحه ، وكتابة مقدمة لتصديره ، ففعلت .

ولما تم طبعه ، ارتأى أن يضم إليه طبع ما كان قد كتبه ونشره فى المنار ، من الرد على كتاب الدكتور (فى الشعر الجاهلى) وهو يدخل فى مسمى هذا الكتاب ؛ لأنه نقض لطعنه فى القرآن ، وقفّى عليه بفصل عنوانه (السياسة الإلحادية فى التعليم) حمله عليه ما كان قد كتبه طه حسين وبعض أنصاره ، من كون الجامعة المصرية قد أنشئت لتعليم وثقافة تضادان تعليم جامعة الأزهر الدينية وثقافتها ، وما ينتقد على جميع المدارس الدنيوية فى هذا الباب . وختم ذلك كله بكلمة قيمة بليغة فى بعض مزايا القرآن الكريم .

ثم ارتأى أن يجعل له ذيلاً فى انتقادات سبقت له على بعض ما كتبه هذا الدكتور الجريء ـــ بل المتهور ـــ فى بعض المسائل الأدبية والتاريخية غير الدينية ، ونشره فى بعض الصحف ، وبذلك عرف كنه الدكتور طه فى جميع معارفه ومقاصده .

وأما مقدمتي للكتاب ، فقد كتبتها قبل تمام طبع أصله ، فموضوعها خاص بطعنه على القرآن العظيم في جملته ، وأهم مسائله الكلية ، وفى طريقة الطاعن وأمثاله فى نقدهم ومطاعنهم ، وبطلان بعض قواعدهم فيه ، وأغلاطهم فيما يبنون عليها من فروع ، دون سياسة الإلحاد فى التعليم وما بعدها، فلم أعرض لهما .

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب تنبيهاً للمغرورين بأنفسهم ، وبصيرة للأغرار المقلدين لهم ، والسلام على من اتبع الهدى .

n